

أحفادُ الجمهوريّة

في مواجهة الإرهاب السُّلالي 2
فجر الحرية



تأليف /
محمود الزبيري

مقدمة الرواية

حكاية الشعب الذي انتفض. حكاية المحافظات التي تحررت. حكاية الطوق الذي اكتمل حول صنعاء. حكاية الزحف الكبير. حكاية سقوط العاصمة. حكاية القبض على رأس الكهنوت. حكاية المحاكمة. حكاية بناء الجمهورية الثانية.

إنها حكاية "أحفاد الجمهورية" الذين لم يعودوا يخافون. الذين خرجوا من تحت الأرض. الذين رفعوا رؤوسهم. الذين قالوا: "لا" للكهنوت. "نعم" للجمهورية. "نعم" للحرية.

في الجزء الأول، كان الثوار قلة. في الجزء الثاني، أصبحوا شعبًا.

في الجزء الأول، كانوا يختبئون. في الجزء الثاني، أصبحوا يزحفون.

في الجزء الأول، كانوا يكتبون. في الجزء الثاني، أصبحوا يقاتلون.

في الجزء الأول، كانوا ينتظرون. في الجزء الثاني، أصبحوا ينتصرون.

هذه هي حكاية "فجر الحرية". حكاية اليمن الذي قال: "كفى". حكاية اليمن الذي قال: "لن أعود إلى الوراء". حكاية اليمن الذي قال: "أنا جمهورية. أنا حرة. أنا يمن." لماذا يجب أن تقرأ هذا الجزء؟

لأنك في الجزء الأول كنت "تنتظر" مع الثوار.
في الجزء الثاني، ستكون "معهم". ستزحف معهم من
مأرب إلى صنعاء.
ستقف معهم في جولة الرويشان.
ستدخل معهم مبنى الاتصالات.
سترفع معهم العلم فوق دار الرئاسة.
ستسمع معهم خطاب عبدالعالم القدسي في ميدان
السبعين.
ستشهد معهم محاكمة الظلام. ستبني معهم الجمهورية
الثانية.
لأنك في الجزء الأول كنت "تقرأ" عن الظلام.
في الجزء الثاني، سـ "تري" الفجر.
وستعرف أن الحرية لا تُشترى بالدموع.
بل بالعمل الدؤوب.

الفصل الأول: مأرب... بوابة الشرق والنفط

المشهد الأول: ليلة النفير

المكان: مضيفة الشيخ صالح - مديرية الوادي - مأرب
الشيخ صالح الجدعاني جلس في صدر المضيفة، ظهره إلى الجدار، والسجاد الأحمر تحته. كان في السادسة والستين، لكنه ما زال قويًا. لحيته البيضاء كثة، وعلى كتفه شال أحمر ملفوف بعناية.

حوله، جلس أحد عشر شيخًا من قبائل مأرب. الجدامي، المرادي، الشعبي، بن جلال. وجوههم نحتتها الشمس، وأيديهم خشنها البنادق.

القهوة تفوح من الدلة النحاسية الموضوعة على الجمر. رائحة البخور تختلط برائحة البارود التي لا تفارق ثياب الرجال.

كانوا صامتين. ينتظرون.

مد الشيخ صالح يده نحو الدلة، وسكب القهوة في فنجان صغير. شرب. ثم رفع رأسه.

— يا رجال.

كلمة واحدة. لكنها كانت كافية.

— مأرب لم تكن يومًا مدينة محتلة. مأرب كانت قلعة

الثوار منذ اليوم الأول. لكن مديرياتنا...

توقف. نظر في وجوههم واحدًا واحدًا.

—الوادي. حريب. العبدية. ماهلية. رحبة. صرواح.
مجزر. هذه المديريات هي شريان الحياة. وهي التي
يحاول الكهنوت خنقها.
صمت ثقيل.

ثم قال الشيخ ناصر المرادي:
—يا شيخ صالح. سمعنا ما وصل من الخط الأحمر.
الوثائق. الأسماء. الجرائم. لكن...
توقف. نظر إلى الأرض. ثم رفع عينيه:
—ماذا ننتظر؟

الشيخ صالح ابتسم. ابتسامة غريبة. ليست ابتسامة
فرح، بل ابتسامة من يعرف أن اللحظة قد حانت.
—لا ننتظر. ننطلق.
صمت آخر. لكنه كان مختلّفًا. كان صمت ما قبل
العاصفة.

ثم وقف الشيخ عبدالله الجدامي. وقفته كانت بطيئة،
لكنها كانت كحركة جبل. نظر إلى الجميع، وقال بصوت
عميق:

—أنا عشت سبعين سنة. رأيت الإمامة، ورأيت
الجمهورية، ورأيت الحرب، ورأيت السلام. لكنني لم أر
كهنوتًا يسرق حتى الأنفاس كما رأيت في هذه السنوات.
توقف. ثم قال:
—أنا مع النفير.

رفع الشيخ صالح هاتفه عاليًا. كانت الشاشة تضيء
بوثائق الخط الأحمر. قال:
— هذا ما وصلني. وثائق. أسماء. جرائم. الكهنوت ينهار
من الداخل. والآن... النفير العام.
هتف الجميع بصوت واحد:
— الله أكبر. الله أكبر. عاشت الجمهورية.
كان صوتهم يتردد في الجبال كرعد بعيد.

المشهد الثاني: تحرير مديرية حريب

المكان: مداخل مديرية حريب - جنوب مأرب

الشاحنات توقفت عند آخر منحى قبل مدخل حريب. الرائد سلطان القردعي نزل من الشاحنة الأولى. كان يرتدي معطفًا عسكريًا ممزق الرتب، وعلى وجهه تلك الندبة القديمة التي تمتد من الجبهة اليمنى إلى أسفل الخد الأيسر.

نظر إلى الرجال الذين تجمعوا حوله. كانوا مزيّجًا غريبًا. قبلون بشبابهم التقليدية وجعابهم الممتلئة بالذخيرة. ضباط أحرار بيزاتهم العسكرية القديمة. شباب في العشرينيات لم يحملوا سلاحًا من قبل إلا في الصيد.

قال سلطان بصوت منخفض لكنه وصل إلى الجميع:

— حريب أمامنا. المليشيا متمركزة في مبنى المديرية وفي نقطتين عند المدخل الشمالي. لا نعرف عددهم بالضبط. لكننا نعرف شيئًا واحدًا.

توقف. نظر في عيونهم.

— نعرف أنهم لا يقاتلون من أجل شيء. نحن نقاتل من أجل كل شيء.

لم يهتف أحد. لم يصرخ أحد. فقط إيماءات بالرأس. وبعضهم شدّوا أحزمة جعابهم.

انطلقوا مع أول خيط ضوء.

المجموعة الأولى، بقيادة سلطان، اتجهت نحو المدخل الشمالي. المجموعة الثانية، ومعظمها من شباب

القبائل، التفت من الغرب عبر ممر ترابي ضيق بين جبليين.

الرصاص بدأ قبل أن يصلوا إلى المبني. طلقة واحدة من نقطة الحراسة. ثم رشقة.

توقف الجميع. انبطحوا على الأرض. التراب يتطاير حولهم.

صاح سلطان:

—القناص! فوق السطح الأيمن!

أحد الشباب، اسمه فهد، كان يحمل بندقية قديمة. استند على صخرة. أطلق طلقة واحدة. سكت القناص. قال فهد وهو يبتسم:

—أول طلقة في حياتي.

قال سلطان:

—لا تفرح. هناك المزيد.

المجموعة الثانية وصلت من الغرب. كانوا قد تسلقوا الجبل في صمت. ومن فوق، بدأوا يطلقون النار على النقطة الشمالية من الخلف.

المليشيا وجدت نفسها بين نارين.

سلطان رفع يده. إشارة. تقدموا.

كانوا يتحركون من سيارة إلى سيارة، من جدار إلى جدار. الرصاص يمر فوق رؤوسهم. أحد الرجال سقط. أصيب في كتفه. سحبه رفيقه خلف جدار.

قال الجريح:

—أكملوا. أكملوا.

بعد ساعتين، سكت الرصاص.

دخل سلطان مبنى المديرية. كان فارغًا. المليشيا انسحبت من الباب الخلفي تاركة أسلحتها. كان هناك ثلاثة قتلى من المليشيا. وجريحان. وجدوا أيضًا ثلاثة معتقلين في غرفة صغيرة في الطابق السفلي. رجال من حريب اعتقلوا قبل أسبوعين.

أحدهم، رجل في الخمسينيات، نظر إلى سلطان ولم يفهم ما يحدث.

قال:

—من أنتم؟

قال سلطان:

—الجمهورية.

الرجل لم يقل شيئًا. جلس على الأرض. ووضع وجهه بين يديه. وبكى.

رفعوا علم الجمهورية فوق مبنى المديرية.

كان العلم قديمًا. ممزقًا من طرفه. لكنه كان يرتفع.

وقف سلطان ينظر إليه. ثم نظر إلى الرجال حوله. كانوا متعبين. ملطخين بالتراب والعرق. أحدهم كان يضمد كتفه الجريح.

قال:

—حريب حرة.

لم يهتف أحد. لم يصرخ أحد. فقط نظروا إلى العلم.

ثم قال سلطان:
—نرتاح ساعة. ثم نتجه إلى العبدية.

في صنعاء، في زنزانة الدكتور عبدالعالم العنسي—، كان
الحراس يجرون في الممر. أصواتهم مرتفعة. عبدالعالم
سمع كلمة واحدة من بين الضجيج:
—حريب.

ابتسم. لم يقل شيئًا. فقط نظر إلى فتحة التهوية
الصغيرة. كان الضوء يتسلل منها. فجر جديد.

في حصن خولان، وقف وليد أمام الشاشة. قرأ الخبر. ثم
التفت إلى نادية وقال:

—حريب سقطت. سلطان يقود.
نادية لم ترد. فقط أخذت قلمًا وكتبت على ورقة صغيرة:
"مأرب - اليوم الأول."

المشهد الثالث: تحرير مديرية العبدية المكان :مديرية العبدية – جنوب مأرب

العبدية كانت مختلفة عن حريب.
في حريب، كانت المليشيا متمركزة في مبنى واحد ونقطتين. أما في العبدية، فكانوا قد تمركزوا في كل مكان. في مبنى المديرية. في المدرسة. في مستوصف صغير على طرف السوق. وفي ثلاث نقاط على المدخل الرئيسي. كانوا يعرفون أن العبدية ستأتي بعد حريب. كانوا ينتظرون.
سلطان أوقف الشاحنات على بعد كيلومترين من المدخل. جمع القادة حوله.
قال:
—الوضع مختلف هنا. لا يمكن أن ندخل من الأمام. سيكون انتحارًا.
فتح خريطة ورقية قديمة على غطاء محرك الشاحنة. وضع عليها حجرًا صغيرًا حتى لا تطير مع الريح.
—فيه ممر جبلي ضيق من الجهة الشرقية. يؤدي إلى ظهر المدرسة. إذا وصلنا إلى هناك، نستطيع أن نقطع خط الإمداد بين المدرسة والمستوصف. هذا هو الخط الوحيد الذي يربطهم.

نظر إلى أحد شباب القبائل. كان اسمه مراد. نحيف، في الخامسة والعشرين، يعرف الجبال أكثر من أي شخص آخر.

قال سلطان:

—مراد. تعرف الممر؟

قال مراد:

—أعرفه. مشيت فيه قبل الحرب. لكنه ضيق. لا يمر منه أكثر من رجل واحد.

قال سلطان:

—كم يحتاج من الوقت؟

قال مراد:

—ساعتان. ربما أكثر.

نظر سلطان إلى ساعته.

—سنبدأ الآن. المجموعة الأولى معي. سنشغلهم من الأمام. مراد سيأخذ عشرين رجلاً ويلتف من الممر. عندما تسمعون الرصاص من الخلف، زحفوا.

انطلق مراد ومجموعته.

الممر كان كما وصفه. ضيقًا. صخريًا. أشواك تجرح السيقان. الشمس فوق رؤوسهم مباشرة. لا ظل. لا ماء. كانوا يمشون في صمت. مراد يتقدم. خلفه العشرون. خطوة بخطوة.

في منتصف الطريق، توقف مراد. رفع يده. الجميع توقف.

سمعوا أصواتًا. أصوات رجال يتحدثون. قادمة من خلف صخرة كبيرة.

مراد زحف على بطنه. نظر من خلف الصخرة. كان هناك ثلاثة مسلحين من المليشيا جالسين يأكلون. بنادقهم على الأرض بجانبهم.

عاد مراد إلى مجموعته. همس:

— ثلاثة. أمامنا مباشرة. سنأخذهم قبل أن يتحركوا.

الثلاثة لم يسمعوا شيئًا.

أول رجل سقط من ضربة بندقية على رأسه. الثاني حاول أن يرفع سلاحه لكن فهد أطلق عليه رصاصة واحدة. الثالث حاول الهرب لكنه اصطدم بصخرة وسقط.

قال مراد:

— هذا يعني أنهم يعرفون بالممر. لكنهم لم يضعوا أكثر من ثلاثة حراس. غباء.

استمروا.

وصلوا إلى ظهر المدرسة بعد ساعتين وعشر دقائق. كانوا يرون المليشيا في الساحة الأمامية. عشرة أو اثنا عشر مسلحًا. بعضهم نائم. بعضهم يتحدث. لم يتوقعوا أحدًا من الخلف.

رفع مراد بندقيته.

قال:

—الله أكبر.

ثم أطلق النار.

في الأمام، سمع سلطان الرصاص.

قال:

—الآن. زحفوا.

انطلقت المجموعة الأولى من الأمام. المليشيا وجدت نفسها بين نارين. بعضهم حاول المقاومة. بعضهم رمى سلاحه وهرب. بعضهم قُتل.

دخل سلطان الساحة. كان الرصاص لا يزال يتطاير. رأى مسلحًا يرفع بندقيته نحوه. أطلق عليه قبل أن يطلق. سقط المسلح.

ثم سكت الرصاص.

في مبنى المديرية، وجدوا ثلاث نساء محتجزات في غرفة صغيرة. كن من قرية قريبة. اختطفن قبل ثلاثة أيام.

إحداهن، امرأة في الأربعينيات، نظرت إلى سلطان

وقالت:

—أنتم من الجمهورية؟

قال:

—نعم.

قالت:

— لم أكن أعرف أن الجمهورية ما زالت موجودة.

قال:

— كانت موجودة دائمًا. لكنها كانت صامتة. اليوم لم تعد صامتة.

جمع سلطان الرجال في الساحة. كان هناك جرحى. اثنان من مجموعته. وثلاثة من المليشيا.

قال:

— الجرحى من المليشيا. عالجوهم. لا تترك أحدًا يموت.

نظر إليه أحد الشباب باستغراب.

قال سلطان:

— نحن لا نقاتل الناس. نحن نقاتل الكهنوت. الجندي الذي رمى سلاحه ليس عدوًا. هو ضحية مثلك ومثلي.

رفعوا علم الجمهورية فوق مبنى العبدية.

كان العلم هذه المرة جديدًا. أحضره أحد الشيوخ من سيارته. قال:

— هذا العلم كنت أخفيه في بيتي منذ خمس سنوات. اليوم أخرجه.

في صنعاء، في زنزانة عبدالعالم سمع الحراس يتحدثون. قال أحدهم:

— العبدية أيضًا. كل مديريات مأرب.

قال الآخر:

—إذن نحن في النهاية.
عبدالعالم سمع. لم يقل شيئاً. لكنه رفع رأسه نحو
فتحة التهوية. كان الضوء يتسلل. والآن كان أقوى من
الأمس.

المشهد الرابع: تأمين حقول النفط في صرواح المكان: مديرية صرواح - حقول النفط - غرب مأرب

الطريق إلى صرواح لم يكن مثل الطرق التي مرو بها من قبل. كانت الأرض هنا مسطحة، ممتدة، لا جبال ولا ممرات. فقط صحراء، وأنايب تمتد على مدى البصر، ومحطات ضخ صغيرة متباعدة، وأبراج حديدية عالية تحترق فوقها شعلة الغاز. سلطان أوقف الشاحنات على بعد كيلومتر من أول محطة ضخ. قال:

— لا نعرف من يسيطر على الحقول الآن. قد تكون المليشيا. قد تكون قبائل. قد لا يكون أحد. نظر إلى الرجال.

— لن نطلق رصاصة واحدة إلا إذا أطلقوا هم. هذه منشآت نفط. رصاصة واحدة في المكان الخطأ تعني حريقًا لا يتوقف.

تقدموا مشيًا على الأقدام. الحراسة كانت موجودة، لكنها لم تكن مليشيا. كانوا خمسة رجال بثياب مدنية، يحملون بنادق قديمة. أحدهم كان جالسًا على كرسي بلاستيكي أمام بوابة المحطة. عندما رأى المجموعة قادمة، وقف. رفع بندقيته.

صرخ:

—قفوا! من أنتم؟

رفع سلطان يده. توقف. قال:

—نحن من مأرب. جئنا نتحدث.

قال الحارس:

—لا نتحدث مع أحد. هذه منشأة نفط. تحت حماية
المسيرة.

قال سلطان:

—من يحميكم الآن؟ أين المليشيا؟

الحارس لم يرد. نظر إلى رفاقه. كانوا مثله. خائفين. لا
يعرفون ما يحدث في الخارج. كانوا محبوسين في هذه
المحطة منذ أسابيع. لا راتب. لا طعام. لا أخبار.

قال أحد الحراس:

—نحن من هنا. من صرواح. ليس لنا علاقة بالحرب.
فقط نحمي المكان.

قال سلطان:

—إذن لن نتحدث بالبنادق. نتحدث بالكلام.

جلسوا على الأرض. في العراء. سلطان جلس مقابل
الحراس الخمسة. لم يكن معه سلاح مرفوع. وضعه
على الأرض بجانبه.

قال:

—اسمعوا. مأرب كلها تحررت. حريب. العبدية.
ماهلية. رحبة. مجزر. الوادي. كل المديريات. المليشيا
هربت. لم يبق أحد.
نظر في عيونهم.

—أنتم تحرسون أنابيب النفط. النفط الذي يخرج من
هذه الأرض ليس ملكًا للمليشيا. ولا لعبد الملك. ولا لعلي
حسين. النفط ملك اليمن. ملك أبنائكم. ملك صرواح.
صمت.

ثم قال أحد الحراس:

—نحن لم نأت إلى هنا طوعًا. جاؤوا بنا. قالوا إننا
سنحمي ثروة الوطن. لكننا لم نر أي ثروة. فقط أنابيب.
ورواتب لا تصل.

قال سلطان:

—الرواتب ستصل. من اليوم. من الجمهورية.

قال الحارس:

—أي جمهورية؟

قال سلطان:

—الجمهورية التي كانت موجودة دائمًا. لكنها كانت
نائمة. اليوم استيقظت.

وقف الحارس الأول. نظر إلى رفاقه. ثم نظر إلى سلطان.
قال:

—إذا دخلتم، لا تؤذوا أحدًا. هناك عمال داخل
المحطة. عائلاتهم في صرواح. بعضهم لم يعد إلى بيته
منذ شهرين.
قال سلطان:

—لا أحد سيؤذى. من يريد أن يبقى، سيبقى ويعمل.
من يريد أن يعود إلى بيته، سنوصله.
دخلوا المحطة.

كانت أشبه بمدينة صغيرة مهجورة. محطات ضخ.
أنابيب. صهاريج. مكاتب. غرف تحكم. عمال يرتدون
بدلات زرقاء. بعضهم كان يجلس على الأرض. لا يعرف
ماذا يفعل.

قال سلطان لأحد المهندسين:

—ما الوضع؟

قال المهندس:

—المحطة تعمل. لكن الإنتاج انخفض. لا قطع غيار.
لا صيانة. والمليشيا كانت تأخذ كل شيء. لم يبقَ لنا
شيء.

قال سلطان:

—من اليوم، ستعمل لليمن. لا لأحد آخر.

جمع سلطان العمال والحراس في الساحة.
قال:

— هذه الحقول ملك الشعب. من اليوم، النفط الذي يخرج من هنا سيُستخدم لبناء المدارس والمستشفيات والطرق. لا لشراء الأسلحة. لا لتمويل الحروب. لا لبناء قصور المشرفين في صنعاء. نظر إلى العمال.

— من منكم يريد أن يستمر في العمل، فليبق. سنوفر له الحماية والراتب. من يريد أن يعود إلى أهله، سنوصله. لم يتحرك أحد. ثم قال المهندس:

— نحن سنبقى. هذا وطننا. هذه أرضنا. لم نكن نعمل من أجل المليشيا. كنا نعمل من أجل النفط. ومن أجل اليمن. قال سلطان:

— إذن، من اليوم، أنتم جنود الجمهورية في هذه الحقول.

رفعوا العلم فوق محطة الضخ الرئيسية. كانت الشمس تميل نحو الغروب. الضوء الذهبي ينعكس على الأنابيب. الشعلة فوق البرج لا تزال مشتعلة. قال سلطان:

— صرواح حرة. ثم نظر إلى الأفق. — الطريق إلى صنعاء من الشرق... مفتوح.

في حصن خولان، وصل الخبر.
وليد قرأ الرسالة على الشاشة. ثم نظر إلى نادية.
قال:

— صرواح. حقول النفط. كلها تحت سيطرة الثوار.
نادية كتبت على الورقة: "مأرب — اليوم الأول. صرواح".
ثم قالت — :مأرب اكتملت. غدًا... البيضاء.
في زنزانة عبدالعالم كان الحراس يجلسون على الأرض.
لا يتحدثون. وجوههم شاحبة.
سمع عبدالعالم أحدهم يهمس:
— النفط أيضًا. خسروا النفط.
رفع عبدالعالم رأسه نحو فتحة التهوية. ابتسم. لم يقل
شيئًا. لكن عينيه كانتا تقولان كل شيء.

المشهد الخامس: تحرير الطريق الدولي ومديريات الجوف

الزمان: فجر اليوم التالي - الساعة الخامسة وعشر-

دقائق

المكان: وادي عبدة - الطريق الدولي (مأرب - الجوف)
لم ينم سلطان تلك الليلة.

جلس في غرفة صغيرة داخل محطة الضخ في صرواح. أمامه خريطة قديمة للطريق الدولي الذي يربط مأرب بالجوف. الخط الأحمر يمتد من وادي عبيدة شمالاً حتى الحدود مع السعودية. وعلى جانبيه، دوائر صغيرة تمثل مديريات الجوف: الحزم، الغيل، الخلق، المتون، الزاهر، الحميدات، رجوزة، خب والشعف.

كان يعرف أن الطريق الدولي هو شريان الحياة للجوف.
من يسيطر عليه، يسيطر على المحافظة كلها.
دخل مراد. كان وجهه متعبًا من معارك الأمس، لكن
عينيه لم تفقد بريقهما.

قال:

—الشيخ صالح وصل. يريد أن يراك.

في المضيقة المؤقتة التي نصبها الثوار في محطة الضخ، كان الشيخ صالح جالسًا مع عشرة من شيوخ قبائل مأرب. أمامهم فناجين قهوة لم يمسها أحد.

قال الشيخ صالح:

—يا سلطان. مأرب اكتملت. لكن الجوف ليست مأرب. الجوف فيها قبائل، وفيها مشرفون، وفيها مليشيا متمركزة في الحزم. لا يمكن أن ندخلها بالطريقة نفسها. قال سلطان:

—أعرف يا شيخ. الجوف ليست مثل مأرب. لكن الطريق الدولي هو المفتاح. إذا قطعناه، انهارت الجوف. قال الشيخ ناصر المرادي:

—الطريق الدولي يمر عبر وادي عبيدة. هناك نقطة تفتيش كبيرة عند مدخل الوادي. المليشيا تسميها "نقطة الحسم". فيها أطقم مدرعة. وفيها مشرف سلالي اسمه أبو ياسر. رجل لا يرحم.

قال سلطان:

—كم عددهم؟

قال الشيخ ناصر:

—لا نعرف بالضبط. لكنهم ليسوا كثر. المليشيا سحبت معظم قواتها إلى صنعاء بعد الضربات. ما تبقى هنا هو حراسة الطريق فقط.

قال الشيخ صالح:

—إذن نبدأ من وادي عبيدة.

انطلقوا قبل شروق الشمس.

المجموعة كانت أكبر هذه المرة. ثلاثمائة رجل من قبائل مأرب. وعشرات من الضباط الأحرار. ومراد ومجموعته.

الطريق إلى وادي عبيدة كان ترابيًّا في معظمه. الشاحنات كانت تتقدم ببطء. الغبار يتصاعد خلفها كستارة كثيفة. عند مدخل الوادي، توقفوا.
قال سلطان:

—مراد. خذ خمسين رجلًا. اصعد الجبل من الجهة اليمنى. لا تطلق النار حتى تسمع رصاصنا.
قال مراد:
—ونقطة الحسم؟

قال سلطان:
—سأشغلها من الأمام. عندما تسمع الرصاص، انزل من الجبل. لا تدع أحدًا يهرب من الخلف.
نقطة الحسم كانت كما وصفها الشيخ ناصر. بوابة حديدية كبيرة. على جانبيها، كتل إسمنتية. خلفها، طقمان مدرعان. وعشرات المسلحين. وعلى سطح مبنى صغير بجانب البوابة، مدفع رشاش ثقيل.
سلطان تقدم بسيارته الأولى. رفع راية بيضاء. توقف على بعد مائة متر.
خرج من السيارة. مشى نحو البوابة.
صرخ أحد المسلحين:
—قف! من أنت؟

قال سلطان:
—أنا الرائد سلطان القردي. من الجيش اليمني. جئت أتحدث مع المسؤول عن النقطة.

قال المسلح:

— لا يوجد مسؤول. هذه نقطة عسكرية. ارجع.

قال سلطان:

— لن أرجع. سأحدث مع أبو ياسر.

بعد دقائق، خرج رجل من المبنى الصغير.

كان في الثلاثينيات. ثوب شعبي يماني. جعبة عسكرية.
خنجر سالي على حزامه. وجهه قاسٍ. عيناه تنضحان
بالاستعلاء.

قال:

— أنا أبو ياسر. ماذا تريد؟

قال سلطان:

— مأرب سقطت. كل مديرياتها. صرواح. حقول النفط.
حريب. العبدية. الطريق الدولي من الشرق مفتوح. لن
تستطيعوا الصمود.
ضحك أبو ياسر. ضحكة قصيرة. جافة.

قال:

— مأرب؟ مأرب كانت خيانة. لكن الجوف ليست
مأرب. الجوف أرض السلالة. لن تدخلوها.

قال سلطان:

— الجوف أرض اليمن. ليست أرض السلالة. وأنت
تعرف ذلك.
قال أبو ياسر:

— سأعطيك دقيقة واحدة. ارجع أو سأأمر بإطلاق النار.

قال سلطان:

— لا داعي للدقيقة.

رفع يده.

انطلق الرصاص من كل مكان.

المجموعة الأمامية بدأت بإطلاق النار على البوابة. المدفع الرشاش على السطح بدأ يرد. لكن مراد كان قد وصل إلى قمة الجبل.

سمع الرصاص. قال:

— الآن.

انطلقوا من فوق.

كانوا يطلقون النار وهم ينزلون. المليشيا وجدت نفسها بين نارين. بعضهم حاول الهرب. بعضهم قاتل حتى الموت. أبو ياسر حاول أن يصل إلى الطقم المدرع لكن رصاصة أصابت ساقه. سقط على الأرض.

بعد ساعة، سكت الرصاص.

البوابة الحديدية كانت مطروحة على الأرض. الطقمان المدرعان كانا محترقين. المبنى الصغير كان مليئًا بالثقوب.

سلطان دخل النقطة.

وجد أبا ياسر على الأرض. كان لا يزال حيًّا. ينزف من ساقه. نظر إلى سلطان بعينين مليئتين بالكراهية.
قال:

— ستندمون. السيد لن يترككم.

قال سلطان:

— السيد؟ أي سيد؟ السيد الذي يسرق النفط؟ السيد الذي يجوع الأطفال؟ السيد الذي يرسل الزينبيات لتداهم البيوت؟
جلس على الأرض بجانبه.
قال:

— اسمعني. أنت من نسل السلالة. لكن هذا لا يعني شيئًا. اليمن ليس ملكًا لأحد. اليمن لكل اليمنيين. من قبل أن تولد. ومن بعد أن تموت.
قال أبو ياسر:

— لن تفهموا. أنتم جهلة. أنتم لا تعرفون الدين.
قال سلطان:

— نحن نعرف الدين. الدين ليس أن تستعبدوا الناس. الدين ليس أن تسرقوا. الدين ليس أن تقتلوا الأطفال. الدين الذي نعرفه نحن هو الرحمة والعدل.
وقف.
قال:

—سنعالج جرحك. ثم سنرسلك إلى صنعاء. هناك ستحاكم. ليس لأنك من السلالة. بل لأنك قتلت وسرقت.

رفعوا العلم فوق نقطة الحسم.
قال سلطان:

—الطريق الدولي مفتوح.
ثم نظر إلى الشمال.
—الجوف أماننا.

بعد ساعتين، وصلوا إلى مديرية الحزم.
لم تكن هناك مقاومة. المليشيا في الحزم كانت قد سمعت بما حدث في نقطة الحسم. بعضهم هرب. بعضهم رعى سلاحه. بعضهم انضم إلى الثوار.
قال الشيخ صالح:
—الحزم حرة.
ثم قال:

—الغيل. الخلق. المتون. الزاهر. الحميدات. رجوزة. خب والشعف. كلها ستسقط. الجوف كلها ستكون حرة. في المساء، وصلوا إلى مديرية الغيل.
كانت المليشيا قد انسحبت. لم يبقَ إلا مشرف واحد. رجل في الأربعينيات. كان يجلس في مكتبه. ينتظر.
عندما دخل سلطان، قال المشرف:
—أنا لا أحارب. أنا موظف. فقط أوقع الأوراق.

قال سلطان:

—أي أوراق؟

قال المشرف:

—أوراق الخمس. أوراق الجبايات. أوراق المصادرات.

قال سلطان:

—هذه ليست أوراقًا. هذه جرائم.

قال المشرف:

—أنا فقط موظف.

قال سلطان:

—إذن، من اليوم، أنت موظف عند الجمهورية.
وستحاسب على ما وقعت.

في اليوم التالي، سقطت مديرية الخلق. ثم المتون. ثم
الزاهر.

لم تكن هناك معارك كبيرة. المليشيا كانت قد انهارت.
المشرفون هربوا. القبائل انضمت إلى الثوار.

في مديرية الحميدات، خرج الناس إلى الشوارع. كانوا
يهتفون:

—عاشت الجمهورية. عاشت الجمهورية.

في مديرية رجوزة، أعلن شيخ القبيلة:

—نحن مع الثوار. مع الجمهورية. ضد الكهنوت.

في مديرية خب والشعف، آخر مديريات الجوف، لم
تكن هناك مقاومة. المليشيا هربت قبل أن يصل الثوار.

في اليوم الثالث، اكتملت الجوف.

قال الشيخ صالح:
—الجوف حرة. كل مديرياتها. الطريق الدولي مفتوح.
صنعاء محاصرة من الشرق والشمال.
في صنعاء، في زنزانة عبدالعالم كان الحراس يجلسون في
الممر. لا يتحدثون. وجوههم شاحبة.
سمع عبدالعالم أحدهم يقول:
—الجوف أيضًا. كل الجوف.
رفع عبدالعالم رأسه نحو فتحة التهوية. كان الضوء
يتسلل. فجر جديد.
في حصن خولان، وصل الخبر.
وليد قرأ الرسالة على الشاشة. ثم نظر إلى نادبة.
قال:
—الجوف. كل مديرياتها. الطريق الدولي مفتوح.
نادبة كتبت على الورقة: "مأرب - الجوف. اليوم
الثالث".
ثم قالت:
—غدا... البيضاء.

الفصل الأول: مأرب... بوابة الشرق والنفط
المشهد السادس: تحرير مديريات الجوف المتبقية
المكان: مديرية برط العنان - شمال الجوف - الحدود
مع السعودية
بقي في الجوف ثلاث مديريات لم تُحرر بعد: برط
العنان، الغيل (التي كانت قد سقطت جزئياً لكن مراكزها
الرئيسية لا تزال تحت سيطرة المليشيا)، وخراب
المراشي.
قال الشيخ صالح لسلطان:
— برط العنان هي الأهم. من يسيطر عليها، يسيطر
على الحدود. المليشيا تعرف ذلك. لذلك ستدافع عنها
بشراسة.
قال سلطان:
— كم عددهم؟
قال الشيخ صالح:
— لا نعرف بالضبط. لكن هناك مشرف كبير اسمه أبو
أصيل. رجل من صعدة. جاء قبل شهرين مع تعزيزات.
يقال إنه من أقارب عبدالملك.
قال سلطان:
— إذن هو هدف.
انطلقوا نحو برط العنان.

كانت الأرض مختلفة هنا. جبال وعرة. طرق ضيقة. لا صحراء ممتدة كما في مأرب. كانت أشبه بجبال صعدة نفسها.

عند مدخل المديرية، توقفوا.

قال مراد:

— هذه ليست حريب. هذه جبال. لا يمكن أن نلتف من الخلف بسهولة.

قال سلطان:

— لا نلتف. ندخل مباشرة.

قال مراد:

— مباشرة؟

قال سلطان:

— نعم. لكن ليس كلنا. أنت تأخذ خمسين رجلاً وتصعد الجبل من الجهة اليسرى. أنا أدخل من الطريق الرئيسي.. عندما تصل إلى القمة، أطلق النار على أي شيء يتحرك فوق.

دخل سلطان بالسيارات الأولى.

الرصاص بدأ قبل أن يصلوا إلى وسط المديرية. كانوا يطلقون من فوق الجبال. من بين الصخور. من خلف الأشجار.

قال سلطان:

— توقفوا. انبطحوا.

كانوا محاصرين. الرصاص يأتي من كل اتجاه.

مراد وصل إلى القمة.
كان يراقب من فوق. رأى مواقع المليشيا. كانت ثلاثة
مواقع. موقع في الكهف. موقع خلف صخرة كبيرة.
موقع في مبنى صغير.
قال لرجاله:

— لا تطلقوا النار. انزلوا. واحدًا واحدًا. اقتربوا. ثم
أطلقوا.

نزلوا في صمت.
وصلوا إلى الكهف أولاً. كان فيه ثلاثة مسلحين. لم
يسمعوا شيئًا. رصاصة واحدة لكل واحد.
ثم الصخرة الكبيرة. كان فيها قناص. فهد أطلق عليه من
الخلف. سقط.

ثم المبنى الصغير. كان فيه خمسة. حاولوا المقاومة.
لكن مراد كان قد وصل. أطلقوا عليهم من كل جانب.
سكت الرصاص.
في الأسفل، سمع سلطان سكوت الرصاص.
قال:

— الآن. تقدم.
دخلوا وسط المديرية. لم تكن هناك مقاومة. المليشيا
هربت.

في المبنى الإداري، وجدوا أوراقًا. كانت أوراق المصادرات.
أوراق الجبايات. أوراق الخمس. وأوراقًا أخرى تحمل
أسماء مشرفين ومواقعهم.

قال سلطان:

— هذه كنز. خذوها.

ثم وصلوا إلى مديرية خراب المراشي.

لم تكن هناك مقاومة. المليشيا هربت بعد سماع سقوط برط العنان. المشرف حاول الهرب لكن القبائل أمسكت به. سلموه إلى الثوار.

قال المشرف:

— أنا فقط موظف. لا تقتلوني.

قال سلطان:

— لن نقتلك. لكنك ستحاكم.

ثم الغيل.

كانت قد سقطت جزئياً في اليوم الأول. لكن مراكزها الرئيسية لا تزال تحت سيطرة المليشيا. عندما وصل الثوار، وجدوا المليشيا قد انسحبت بالكامل. لم يبق أحد.

قال الشيخ صالح:

— الغيل حرة.

في صباح اليوم الخامس، اكتملت الجوف.

قال الشيخ صالح:

— الجوف كلها حرة. من الحزم إلى برط العنان. من الغيل إلى خراب المراشي. الطريق الدولي مفتوح. الحدود مع السعودية تحت سيطرة الثوار. نظر إلى سلطان.

—ماذا بعد؟

قال سلطان:

—البيضاء.

في صنعاء، في زنزانة عبدالعالم كان الحراس يجلسون على الأرض. لا يتحدثون. وجوههم شاحبة. أحدهم كان يبكي.

سمع عبدالعالم أحدهم يقول:

—الجوف أيضًا. كل الجوف. الحدود. الطريق الدولي.

رفع عبدالعالم رأسه نحو فتحة التهوية. كان الضوء يتسلل. فجر جديد. لكن هذه المرة، كان الضوء أقوى. كان أقرب.

في حصن خولان، وصل الخبر.

وليد قرأ الرسالة على الشاشة. ثم نظر إلى نادية. قال:

—الجوف. كل الجوف. من الحزم إلى برط العنان.

نادية كتبت على الورقة: "مأرب - الجوف. اليوم الخامس".

ثم قالت:

—مأرب والجوف اكتملتا. الآن... البيضاء.

الفصل الثاني: البيضاء... معقل الرفض التاريخي

المشهد الأول: الجبل الذي لا ينحني

البيضاء ليست مأرب.

في مأرب، الصحراء تمنحك مجالاً للحركة. تتحرك، تتراجع، تلتف. أما البيضاء، فجبالها تضيق عليك. طريق واحد. منحدر واحد. إذا أخطأت، سقطت في الوادي. وإذا سقطت في الوادي، لن يعود منك أحد.

في قرية "آل حميقان"، كان الشيخ ناصر الحميقاني يجلس على مصطبة حجرية أمام بيته. البيت كان مبنياً من الحجر الأسود، مثل معظم بيوت البيضاء. سطحه مستوٍ. تحته، في الوادي، كانت البيوت الأخرى، متناثرة كأنها سقطت من السماء.

الشيخ ناصر كان في السادسة والخمسين. جسمه نحيل، لكن يديه خشنتان. وجهه نحيف، وفيه ندبة قديمة تحت عينه اليسرى. كان يرتدي ثوباً تقليدياً، وفوقه جعبة عسكرية قديمة. على حزامه جنابية، لكنها ليست للزينة. استخدمها من قبل.

أمامه، جلس سبعة رجال من قبيلته. كانوا يعرفون أن هذا الاجتماع ليس عادياً.

قال الشيخ ناصر:

—وصلتني رسالة من مأرب. من الشيخ صالح.

نظر إلى وجوههم.

—مأرب سقطت. كلها. الجوف أيضًا. الطريق الدولي
مفتوح. صنعاء محاصرة من الشرق والشمال.
صمت.

ثم قال أحد الرجال:
—إذن؟

قال الشيخ ناصر:
—إذن، البيضاء.

المشهد الثاني: البيضاء... تاريخ لا ينسى

المكان: قرية "آل حميقان" - داخل بيت الشيخ ناصر
في الداخل، كانت الغرفة صغيرة. جدرانها حجرية. في
الزاوية، مدفأة قديمة. فوقها، صورة قديمة لرجل يرتدي
عمامة. كان جد الشيخ ناصر.

قال الشيخ ناصر:

—جدي هذا قاتل الإمامة. قبل ستين سنة. كان في
جيش الثورة. دخل صنعاء مع الثوار. رأى بعينه كيف
سقطت الإمامة.

نظر إلى الحاضرين.

—واليوم، نحن نواجه كهنوتًا جديدًا. لكنه أخطر.
الإمامة القديمة كانت تحكم بالسلاح. هؤلاء يحكمون
بالسلاح، وبالدين، وبالمال، وبالخوف.

قال أحد الشباب:

— يا شيخ. نحن معك. لكن البيضاء ليست مثل مأرب.
المليشيا متمركزة في كل مكان. في رداع. في مريس. في
قيفة. في السوادية. في الطفة. في الزاهر. في كل مديرية.
قال الشيخ ناصر:

— أعرف. لهذا لن نبدأ من رداع. سنبدأ من هنا. من
الزاهر. من قريننا. من هذه الجبال.
نظر إلى الخارج.

— من يسيطر على جبال البيضاء، يسيطر على المدينة.
المليشيا تعرف ذلك. لكنها لا تعرف جبالنا كما نعرفها.

المشهد الثالث: الليلة الأولى

المكان: مديرية الزاهر — نقطة تفتيش المليشيا عند
مدخل القرية

في الفجر، تحرك رجال الشيخ ناصر.
كانوا عشرين رجلاً. ليسوا كثيرين. لكنهم يعرفون كل
حجر في هذه الجبال. يعرفون كل ممر. كل كهف. كل
طريق اختياري.

قال الشيخ ناصر لابنه أحمد:

— خذ عشرة رجال. اصعد الجبل من الجهة اليمنى. لا
تطلق النار حتى تسمع رصاصنا.

قال أحمد:

— وأنت؟

قال الشيخ ناصر:

— سأكون في الأمام.

نقطة التفتيش كانت صغيرة. ثلاثة مسلحين. طقم واحد. كتل إسمنتية.
في الفجر، كانوا نائمين. واحد منهم كان مستيقظًا. يشرب الشاي.
الشيخ ناصر تقدم مع عشرة رجال. زحفوا على بطونهم. كانوا على بعد خمسين مترًا.
قال الشيخ ناصر:
—الآن.

انطلق الرصاص.
المسلح الذي كان يشرب الشاي سقط أولاً. الآخران حاولا أن يستيقظا. لكن الرصاص كان أسرع. الطقم حاول أن يتحرك. لكنه كان محاصرًا. أحمد كان قد وصل إلى القمة. وأطلق النار من فوق.
بعد دقائق، سكت الرصاص.
قال الشيخ ناصر:
—الزاهر حرة.

المشهد الرابع: رداع... القلعة التي لا تسقط
رداع كانت مختلفة.
رداع مدينة. ليست قرية. فيها شوارع. فيها أسواق. فيها مبانٍ حكومية. وفيها مليشيا كثيفة.
قال الشيخ ناصر لأحمد:
—رداع ليست مثل الزاهر. لا يمكن أن ندخلها بالطريقة نفسها.

قال أحمد:

—إذن ماذا نفعل؟

قال الشيخ ناصر:

—ننتظر. رداً فيها قبائل. قبائل رداً ليست مع
المليشيا. لكنها خائفة. إذا رأوا أننا انتصرنا في الزاهر،
سينضمون إلينا.

في اليوم الثاني، وصلت أنباء سقوط الزاهر إلى رداً.
في سوق رداً، كان الناس يتحدثون. همساً. خوفاً.
قال رجل:

—سمعت أن الثوار سيطروا على الزاهر.

قال آخر:

—ليس الثوار. قبائل البيضاء.

قال الأول:

—نفس الشيء.

قال آخر:

—إذن، رداً بعد الزاهر.

في تلك الليلة، جاء إلى الشيخ ناصر ثلاثة من شيوخ
رداً. كانوا خائفين. قال أحدهم:

—يا شيخ ناصر. نحن معك. لكننا لا نستطيع أن
نتحرك. المليشيا في رداً كثيرة. إذا تحركنا، يقتلوننا.

قال الشيخ ناصر:

—لا تتحركوا. فقط انتظروا. عندما نصل، افتحوا لنا
الأبواب.

المشهد الخامس: معركة رداع

في الفجر، تحرك الثوار نحو رداع. كانوا أكثر هذه المرة. مائتان من قبائل الزاهر. وانضم إليهم شباب من قيعة ومريس. قال الشيخ ناصر:

— لا نريد أن ندمر المدينة. لا نريد أن نقتل الأبرياء. نريد أن ندخلها. فقط.

عند مدخل رداع، كانت المليشيا تنتظر. بدأ الرصاص.

كانت المعركة شرسة. المليشيا كانت تقاتل من داخل المباني. من فوق الأسطح. من النوافذ. لكن الثوار كانوا يعرفون المدينة. كانوا يعرفون كل زقاق. كل شارع. كل باب. قال الشيخ ناصر لأحمد:

— خذ عشرين رجلاً. التف من الخلف. من جهة السوق القديم. أنا سأشغلهم من الأمام. أحمد التف.

وصل إلى السوق القديم. كان هناك عدد قليل من المليشيا. فاجأهم. أطلق النار. سمع الشيخ ناصر الرصاص من الخلف. قال:

— الآن. تقدم.

دخلوا المدينة.

بعد ثلاث ساعات، سكت الرصاص.

قال الشيخ ناصر:

—رداع حرة.

رفعوا العلم فوق مبنى المديرية.

المشهد السادس: مريس... الجبل الذي لا ينحني

مريس كانت مختلفة.

مريس جبل. جبل عالٍ. وفوق الجبل، قرية. وإلى جانب

القرية، مزرعة. وإلى جانب المزرعة، مقبرة. وفي المقبرة،

قبور شهداء من زمن الإمامة.

قال الشيخ ناصر:

—مريس كانت دائمًا مع الثورة. من أيام جدي. أهل

مريس لا ينحنون.

عندما وصل الثوار إلى مريس، لم يجدوا مقاومة.

المليشيا كانت قد هربت قبل يومين. سمعوا بسقوط

رداع. ففروا.

قال شيخ مريس:

—مريس حرة. من اليوم. نحن مع الجمهورية.

المشهد السابع: قيعة... الأرض التي أنجبت الثوار

قيعة كانت أكبر من مريس.

قيعة كانت أرض الثوار. من أيام ثورة ١٩٦٢. أهل قيعة

كانوا في المقدمة. واليوم، كانوا في المقدمة مرة أخرى.

قال الشيخ ناصر:

— قيفة تعرفنا. نحن لا نحتاج أن نقاتل فيها. فقط ندخلها.

عندما وصل الثوار إلى قيفة، خرج الناس إلى الشوارع. كانوا يهتفون:

— عاشت الجمهورية. عاشت الجمهورية.
قال أحد الشيوخ:

— قيفة معكم. من اليوم. ومن قبل اليوم.

المشهد الثامن: البيضاء... المدينة

مدينة البيضاء كانت آخر معقل.

كانت المليشيا قد جمعت ما تبقى لها فيها. كانوا يعرفون أن المدينة ستسقط. لكنهم أرادوا أن يقاتلوا.

قال الشيخ ناصر لأحمد:

— هذه المعركة الأخيرة في البيضاء. لا نريد أن نخسر—
رجالاً. لكن لا نريد أن نهرب.

قال أحمد:

— ماذا نفعل؟

قال الشيخ ناصر:

— نحاصر المدينة. من كل الجهات. لا ندخل. نتركهم.
إذا أرادوا أن يقاتلوا، سيقاتلون. لكنهم لن يستطيعوا الصمود.

حاصروا المدينة.

في اليوم الأول، لم يحدث شيء.

في اليوم الثاني، بدأت المليشيا تطلق النار. عشوائيًا. من
الخوف.

في اليوم الثالث، حاول بعضهم الهرب. لكن الثوار كانوا
في كل مكان.

في اليوم الرابع، خرج مشرف المدينة. كان يحمل راية
بيضاء.
قال:

— نريد أن نتفاوض.

قال الشيخ ناصر:

— لا تفاوض. إما أن تسلموا، أو نموت جميعًا.

في صباح اليوم الخامس، سلمت المليشيا المدينة.
دخل الثوار.

رفعوا العلم فوق مبنى المحافظة.

قال الشيخ ناصر:

— البيضاء حرة.

المشهد التاسع: صدى النصر

أحدهم كان يبكي.

سمع عبدالعالم أحدهم يقول:

— البيضاء أيضًا. كل البيضاء. رداً. مريس. قيفة.
الزاهر.

رفع عبدالعالم رأسه نحو فتحة التهوية. كان الضوء
يتسلل. فجر جديد. لكن هذه المرة، كان الضوء أقوى.
كان أقرب.

في حصن خولان، وصل الخبر.
وليد قرأ الرسالة على الشاشة. ثم نظر إلى نادية.
قال:

—البيضاء. كل البيضاء.
نادية كتبت على الورقة: "البيضاء. اليوم السادس".
ثم قالت — غداً... تعز.

الفصل الثالث: تعز... قلب اليمن المقاوم

تعز ليست مثل مأرب. وليست مثل البيضاء.
في مأرب، كانت المعركة مفتوحة. في البيضاء، كانت
المعركة في الجبال. أما في تعز، فالمعركة كانت في شارع
واحد. شارع جمال. شارع طويل، مستقيم، يقسم
المدينة إلى نصفين. النصف الشرقي حر. النصف الغربي
محتل. وبينهما، خط رصاص. لا أحد يعبره. لا أحد
يقترّب منه.

على الجانب الحر، كان الرائد سلطان القردي يقف أمام
مبنى صغير تحول إلى غرفة عمليات. كان قد وصل قبل
ثلاث ساعات مع مجموعة من الضباط الأحرار. خلفه،
كان الشيخ صالح الجدعاني يجلس على كرسي خشبي،
يمسك بسبحة قديمة.

قال سلطان:

—تعز مختلفة. لا يمكن أن ندخلها من الخارج. تعز
نصفها حر. النصف الآخر محتل. المعركة ستكون في
الداخل. في الشارع نفسه.

قال الشيخ صالح:
— كم عدد المليشيا في النصف الغربي؟
قال سلطان:

— لا نعرف بالضبط. لكنهم كثر. متمركزون في المبنى الإداري. في مستشفى الثورة. في مدرسة الشهيد. في كل مبنى كبير.

قال الشيخ صالح:
— إذن، الحل ليس عسكريًا فقط.
قال سلطان:

— نعم. الحل هو أن نحرك الناس. الناس في النصف الغربي ليسوا مع المليشيا. هم محتلون. إذا تحركوا من الداخل، ونحن من الخارج، سينهار كل شيء.

المشهد الثاني: الحاجة فاطمة... امرأة في السبعين

الحاجة فاطمة كانت تجلس على سجادة صغيرة. حولها، نساء من الحي. كان وجوههن متعبة. لكن عيونهن كانت تلمع. كانت تحمل أخبارًا. أخبار مأرب. أخبار البيضاء. أخبار الجوف. كانت تصل عبر الهواتف. عبر الرسائل. عبر "الخط الأحمر".
قالت الحاجة فاطمة:

— يا بناتي. مأرب سقطت. البيضاء سقطت. الجوف سقطت. واليوم، جاء الدور علينا.
قالت إحدى النساء:

—يا حاجة. نحن في النصف المحرر. لكن النصف الآخر محتل. كيف نحرره؟
قالت الحاجة فاطمة:

—نحرره من الداخل. المليشيا في النصف الغربي تظن أن الناس هناك معها. لكنها ليست معها. الناس هناك خائفون. فقط. إذا تحركنا، سيتحركون.
قالت امرأة أخرى:
—وكيف نتحرك؟

قالت الحاجة فاطمة:
—الليلة. نرسل الرسائل. إلى كل بيت. إلى كل امرأة. إلى كل شاب. نقول لهم: غدًا. الساعة العاشرة. اخرجوا. لا تخافوا. نحن معكم.

المشهد الثالث: الرسائل

في غرفة صغيرة، كان ثلاثة شباب يعملون على هواتفهم. كانوا يرسلون رسائل نصية. لا صوت. لا صورة. فقط كلمات قليلة.

"غدًا. الساعة العاشرة. اخرجوا. لا تخافوا. نحن معكم."
كانوا يرسلون إلى أرقام جمعوها من قبل. من أصدقاء. من أقارب. من زملاء. من كل من يعرفون أنه ضد المليشيا.

قال أحد الشباب:
—هل تعتقد أنهم سيخرجون؟
قال آخر:

—لا أعرف. لكن إذا خرج عشرة، سيخرج مئة. وإذا
خرج مئة، سيخرج ألف.
قال الثالث:

—يجب أن نستمر. حتى الصباح.

المشهد الرابع: صباح اليوم التالي

في الجانب الغربي، كان الناس يفتحون أبوابهم بحذر.
كانوا ينظرون من النوافذ. كانوا يقرؤون الرسائل على
هواتفهم.

في منزل صغير قريب من مستشفى الثورة، كانت امرأة في
الأربعينيات تقرأ الرسالة. كانت وحدها. زوجها في
الجبهة. ابنها الأكبر في المعتقل. كان لديها ابنان صغيران.
قرأت الرسالة بصوت خافت:

"غداً. الساعة العاشرة. اخرجوا. لا تخافوا. نحن معكم."
نظرت إلى ابنيها. كانا يلعبان على الأرض. ثم نظرت إلى
الباب. كانت تعرف أن الخروج يعني الموت. لكنها كانت
تعرف أيضًا أن البقاء يعني الموت البطيء.
وقفت.

في الجانب المحرر، كان سلطان يراقب من فوق سطح
مبنى. كان يرى الجانب الغربي. كان يرى الشوارع
الفارغة. كان يرى النقاط الأمنية. كان يرى المليشيا.

قال لمراد:

—هل ترى أحداً؟

قال مراد:

—لا. الشوارع فارغة.

قال سلطان:

—انتظر. الساعة العاشرة لم تأت بعد.

المشهد الخامس: الساعة العاشرة

في الساعة العاشرة، فتحت المرأة بابها.

خرجت. كانت ترتدي عباءتها السوداء. كان ابنها

بجانها. لم تكن تعرف إلى أين تذهب. لكنها خرجت.

في الشارع، رأت امرأة أخرى. ثم ثالثة. ثم رجلًا عجوزًا.

ثم شابًا. ثم طفلًا.

كانوا يخرجون من بيوتهم. واحدًا واحدًا. عشرة. مئة.

ألف.

كانوا يمشون نحو شارع جمال. نحو الخط الفاصل.

نحو الجانب الحر.

المليشيا رأتهم.

صرخ أحدهم:

—ارجعوا! ارجعوا إلى بيوتكم!

لم يرجع أحد.

أطلق أحدهم النار في الهواء.

لم يتوقف أحد.

كانوا يمشون. بصمت. ببطء. لكنهم كانوا يمشون.

المشهد السادس: الانهيار

في مستشفى الثورة، كان المليشيا ينتظرون الأوامر. لكن الأوامر لم تأت. كانوا يرون الناس يخرجون. كانوا يرون الجموع تتجه نحو شارع جمال. كانوا يعرفون أن إطلاق النار على هؤلاء الناس يعني مذبحه. ومذبحه بهذا الحجم لا يمكن أن تمر.

قال أحد المسلحين:

— ماذا نفعل؟

قال المشرف:

— لا أعرف. لا أحد يخبرنا بشيء.

قال المسلح:

— الجموع تقترب.

قال المشرف:

— لا تطلقوا النار. ليس بعد.

المشهد السابع: العبور

في شارع جمال، كان الجانبان ينظران إلى بعضهما. على الجانب الشرقي، كان الثوار. على الجانب الغربي، كان المليشيا. وبينهما، كان الناس.

كانوا يعبرون.

كانوا يمشون من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي. كانوا يعبرون الخط الفاصل. كانوا يصلون إلى الجانب الحر.

كانوا يهتفون:

— عاشت الجمهورية. عاشت الجمهورية.

سلطان كان يراقب من فوق السطح. قال لمراد — :
الآن.

المشهد الثامن: الهجوم

انطلق الثوار من الجانب الشرقي.
كانوا يتحركون بين الناس. كانوا يحمونهم. كانوا يتقدمون
نحو مستشفى الثورة. نحو المبنى الإداري. نحو مدرسة
الشهيد.

المليشيا كانت مشوشة. لم تكن تعرف من يطلق النار.
كان الناس في كل مكان. كان الثوار في كل مكان.
قال المشرف:

— انسحبوا. انسحبوا إلى المبنى الإداري.

المشهد التاسع: المبنى الإداري

في المبنى الإداري، كان المشرف وعدد من المسلحين
يتحصنون.

قال المشرف:

— لا نستطيع الصمود. يجب أن نطلب تعزيزات.

قال المسلح:

— لا توجد تعزيزات. كل التعزيزات ذهبت إلى صنعاء.

قال المشرف:

— إذن، نتفاوض.

المشهد العاشر: النصر

خرج المشرف من المبنى. كان يحمل راية بيضاء.
قال سلطان:

— ما شروطك؟

قال المشرف:

— نريد أن نخرج. بسلام.

قال سلطان:

— لن تخرجوا. ستسلمون أنفسكم. وسيحكم من ارتكب جرائم. أما البقية، فسيطلق سراحهم.

قال المشرف:

— ليس لنا خيار آخر.

قال سلطان:

— لا.

سلمت المليشيا نفسها.

دخل الثوار المبنى الإداري.

رفعوا العلم فوق المبنى.

قال سلطان:

— تعز حرة.

المشهد الحادي عشر: قلعة القاهرة

في قلعة القاهرة، تجمع الناس. كانوا يهتفون. كانوا يرفعون الأعلام. كانوا يبكون.

صعد سلطان إلى أعلى القلعة. رفع العلم. كان العلم كبيرًا. كان يرفرف فوق تعز. فوق الجبل. فوق المدينة.

قال سلطان:

— تعز. قلب اليمن. اليوم. عاد إلى النبض.

المشهد الثاني عشر: صدى النصر

في زنزانة عبدالعالم كان الحراس يجلسون على الأرض.
لا يتحدثون. وجوههم شاحبة. أحدهم كان يبكي.
سمع عبدالعالم أحدهم يقول:
— تعز أيضًا. كل تعز.

رفع عبدالعالم رأسه نحو فتحة التهوية. كان الضوء
يتسلل. فجر جديد. لكن هذه المرة، كان الضوء أقوى.
كان أقرب.

في حصن خولان، وصل الخبر.
وليد قرأ الرسالة على الشاشة. ثم نظر إلى نادية.
قال:

— تعز. كل تعز.
نادية كتبت على الورقة: "تعز. اليوم السابع".
ثم قالت:
— غدًا... إب.

المشهد الأول: الجبل الذي لا ينحني

المكان :إب - مديرية الشعر - قرية "بني مسلم"
إب ليست مثل تعز.

تعز مدينة مقسمة. إب جبل. جبل أخضر. مدرجات تتصاعد نحو القمة، كل مدرجة مزروعة بالقات أو البن أو الحبوب. بيوت حجرية متصلة ببعضها كأنها جسد واحد. طريق واحد ضيق يصعد بك إلى الأعلى. وإذا أخطأت، سقطت في الوادي.

في قرية "بني مسلم"، كان بشير الحارثي يجلس على سطح بيته. كان في الثامنة والعشرين. نحيل الجسم، كث الشعر، عيناه تحترقان بنار لم تنطفئ منذ سنوات. كان يرتدي معطفًا قديمًا، وعلى كتفه شالًا. لم يكن يحمل سلاحًا. لم يكن معه شيء سوى هاتف صغير. إلى جانبه، كان والده الشيخ عبدالله الحارثي يجلس على كرسي خشبي. كان في الستينيات. وجهه نحتته الشمس. كان قد قاتل في الحرب الأولى. ثم اعتزل. لكنه لم ينس. قال بشير:

— يا أبي. وصلت الأخبار. مأرب. الجوف. البيضاء. تعز. كلها سقطت.

قال الشيخ عبدالله:

— سمعت.

قال بشير:

—واليوم... إِب.

قال الشيخ عبدالله:

—إِب ليست مثل غيرها. إِب جبل. والجبل لا يُحتل بسهولة. لكنه أيضًا لا يُحرر بسهولة.

قال بشير:

—أعرف. لهذا لن نبدأ من المدينة. سنبدأ من هنا. من القرى. من الجبال. من كل مديرية. حتى نطوق المدينة.
قال الشيخ عبدالله:

—ومن سيبدأ معك؟

قال بشير:

—الشباب. الذين لا يخافون. الذين لم يعرفوا إلا الحرب. والذين يعرفون أن لا شيء أسوأ من البقاء هكذا.

المشهد الثاني: الليلة الأولى

المكان: مديرية الشعر - نقطة تفتيش المليشيا عند مدخل القرية

في الفجر، تحرك بشير.

كان معه خمسة عشر شابًا. ليسوا كثيرين. لكنهم يعرفون الجبل. يعرفون كل مدرجة. كل ممر. كل طريق اختياري.
قال بشير:

—لا نريد أن نقتل. نريد أن نُخرجهم. إذا استسلموا، لا تطلقوا النار.

نقطة التفتيش كانت صغيرة. ثلاثة مسلحين. طقم واحد. كتل إسمنتية.

في الفجر، كانوا نائمين. واحد منهم كان مستيقظًا. يشرب الشاي.

زحف بشير ومجموعته. كانوا على بعد ثلاثين مترًا.
قال بشير:
—الآن.

انطلق الرصاص.
المسلح الذي كان يشرب الشاي سقط أولاً. الآخرون حاولوا أن يستيقظوا. لكن الرصاص كان أسرع. الطقم حاول أن يتحرك. لكنه كان محاصرًا.
بعد دقائق، سكت الرصاص.
قال بشير:

—الشعر حرة.

المشهد الثالث: الشرارة

المكان: إب - مديريات الشعر، السياني، الظهار، المشنة، ريف إب
في اليوم الثاني، بدأت الأخبار تنتشر.
في مديرية السياني، خرج الشباب إلى الشوارع. رفعوا الأعلام. هتفوا:
—عاشت الجمهورية.

في مديرية الظهار، حاولت المليشيا أن تطلق النار على المتظاهرين. لكن القبائل تدخلت. قال شيخ القبيلة:
—لن تطلقوا النار على أبنائنا.

في مديرية المشنة، انسحبت المليشيا من نقاطها. لم تكن تريد أن تقاتل. كانت تريد أن تنجو. في ريف إب، انضمت القرى واحدة تلو الأخرى. كل قرية كانت ترفع العلم. كل قرية كانت تقول: —نحن مع الثوار.

المشهد الرابع: مدينة إب

المكان: مدينة إب - المدخل الشمالي
مدينة إب كانت آخر معقل.

كانت المليشيا قد جمعت ما تبقى لها فيها. كانوا يعرفون أن المدينة ستسقط. لكنهم أرادوا أن يقاتلوا. قال بشير لأبيه:

—هذه المعركة الأخيرة في إب. لا نريد أن نخسر- رجالاً. لكن لا نريد أن نهرب.
قال الشيخ عبدالله:
—ماذا تفعل؟

قال بشير:

—نحاصر المدينة. من كل الجهات. لا ندخل. نتركهم. إذا أرادوا أن يقاتلوا، سيقاتلون. لكنهم لن يستطيعوا الصمود.
حاصروا المدينة.

في اليوم الأول، لم يحدث شيء. في اليوم الثاني، بدأت المليشيا تطلق النار. عشوائيًا. من الخوف.

في اليوم الثالث، حاول بعضهم الهرب. لكن الثوار كانوا في كل مكان.
في اليوم الرابع، خرج مشرف المدينة. كان يحمل راية بيضاء.
قال:

— نريد أن نتفاوض.
قال بشير:

— لا تفاوض. إما أن تسلموا، أو نموت جميعًا.
في صباح اليوم الخامس، سلمت المليشيا المدينة.
دخل الثوار.
رفعوا العلم فوق مبنى المحافظة.
قال بشير:
— إِب حرة.

المشهد الخامس: الجبل الأخضر

المكان: إِب - قمة جبل بعدان
في قمة جبل بعدان، تجمع الناس. كانوا يهتفون. كانوا يرفعون الأعلام. كانوا يبكون.
صعد بشير إلى أعلى القمة. رفع العلم. كان العلم كبيرًا.
كان يرفرف فوق إِب. فوق الجبل. فوق المدينة.
قال بشير:

— إِب. الجبل الأخضر. اليوم. عاد إلى الحياة.

المشهد السادس: صدى النصر

المكان: زنزانة الدكتور عبدالعالم القدسي - صنعاء

في زنزانة عبدالعالم كان الحراس يجلسون على الأرض.
لا يتحدثون. وجوههم شاحبة. أحدهم كان يبكي.
سمع عبدالعالم أحدهم يقول:
—إب أيضًا. كل إب.

رفع عبدالعالم رأسه نحو فتحة التهوية. كان الضوء
يتسلل. فجر جديد. لكن هذه المرة، كان الضوء أقوى.
كان أقرب.

في حصن خولان، وصل الخبر.
وليد قرأ الرسالة على الشاشة. ثم نظر إلى نادية.
قال:

—إب. كل إب.
نادية كتبت على الورقة: "إب. اليوم الثامن".
ثم قالت:
—غداً... ذمار.

الفصل الخامس: ذمار... المخزن البشري الذي صحا

المشهد الأول: المدينة التي كانت مخزنًا

المكان: ذمار - مديرية الحدأ - قرية "بني ضبيان"
ذمار كانت مختلفة.

ذمار كانت تُسمى "المخزن البشري". لأن المليشيا كانت
تجند شبابها بالقوة. ترسلهم إلى الجبهات. يموتون
هناك. لا يعود منهم إلا القليل.

في قرية "بني ضبيان"، كان الشيخ عبدالقوي الحداوي
يجلس في مضافته. كان في الخمسينيات. عريض
المنكبين. لحيته سوداء ما زال فيها سواد. عيناه
تشتعلان بغضب لم ينطفئ منذ سنوات.

أمامه، جلس عشرون رجلًا من قبيلته. كانوا يعرفون أن
هذا الاجتماع ليس عاديًا.

قال الشيخ عبدالقوي:

—وصلتني رسالة من إب. من بشير الحارثي.

نظر إلى وجوههم.

—مأرب سقطت. الجوف سقطت. البيضاء سقطت.

تعز سقطت. إب سقطت.

صمت.

ثم قال أحد الرجال:

—إذن؟

قال الشيخ عبدالقوي:

—إذن، ذمار.

المشهد الثاني: بني ضبيان

المكان: قرية "بني ضبيان" - داخل بيت الشيخ عبدالقوي

في الداخل، كانت الغرفة صغيرة. جدرانها حجرية. في الزاوية، مدفأة قديمة. فوقها، صورة قديمة لرجل يرتدي عمامة. كان جد الشيخ عبدالقوي.
قال الشيخ عبدالقوي:

—جدي هذا قاتل الإمامة. قبل ستين سنة. كان في جيش الثورة. دخل صنعاء مع الثوار. رأى بعينه كيف سقطت الإمامة.
نظر إلى الحاضرين.

—واليوم، نحن نواجه كهنوًا جديدًا. لكنه أخطر. الإمامة القديمة كانت تحكم بالسلاح. هؤلاء يحكمون بالسلاح، وبالدين، وبالمال، وبالخوف.
قال أحد الشباب:

—يا شيخ. نحن معك. لكن ذمار ليست مثل مأرب. المليشيا متمركزة في كل مكان. في مدينة ذمار. في معسكر الحمزة. في جبل الشرق. في مغرب عنس. في الحدأ. في كل مديرية.

قال الشيخ عبدالقوي:

—أعرف. لهذا لن نبدأ من المدينة. سنبدأ من هنا. من قريننا. من هذه الجبال.
نظر إلى الخارج.

—من يسيطر على جبال ذمار، يسيطر على المدينة.
المليشيا تعرف ذلك. لكنها لا تعرف جبالنا كما نعرفها.

المشهد الثالث: الليلة الأولى

المكان: مديرية الحدأ - نقطة تفتيش المليشيا عند
مدخل القرية

في الفجر، تحرك رجال الشيخ عبدالقوي.
كانوا خمسة وعشرين رجلاً. ليسوا كثيرين. لكنهم
يعرفون كل حجر في هذه الجبال. يعرفون كل ممر. كل
كهف. كل طريق اختياري.

قال الشيخ عبدالقوي لابنه أحمد:

—خذ عشرة رجال. اصعد الجبل من الجهة اليمنى. لا
تطلق النار حتى تسمع رصاصنا.

قال أحمد:

—وأنت؟

قال الشيخ عبدالقوي:

—سأكون في الأمام.

نقطة التفتيش كانت صغيرة. ثلاثة مسلحين. طقم
واحد. كتل إسمنتية.

في الفجر، كانوا نائمين. واحد منهم كان مستيقظاً. يشرب
الشاي.

الشيخ عبدالقوي تقدم مع خمسة عشر رجلاً. زحفوا
على بطونهم. كانوا على بعد خمسين مترًا.

قال الشيخ عبدالقوي:

—الآن.

انطلق الرصاص.

المسلح الذي كان يشرب الشاي سقط أولاً. الآخرون حاولوا أن يستيقظوا. لكن الرصاص كان أسرع. الطقم حاول أن يتحرك. لكنه كان محاصرًا. أحمد كان قد وصل إلى القمة. وأطلق النار من فوق.

بعد دقائق، سكت الرصاص.

قال الشيخ عبدالقوي:

—الحدأ حرة.

المشهد الرابع: جبل الشرق

المكان: مديرية جبل الشرق - غرب ذمار

جبل الشرق كانت مختلفة.

جبل الشرق جبل. جبل عالٍ. وفوق الجبل، قرية. وإلى جانب القرية، مزرعة. وإلى جانب المزرعة، مقبرة. وفي المقبرة، قبور شهداء من زمن الإمامة.

قال الشيخ عبدالقوي:

—جبل الشرق كانت دائمًا مع الثورة. من أيام جدي.

أهل جبل الشرق لا ينحنون.

عندما وصل الثوار إلى جبل الشرق، لم يجدوا مقاومة. المليشيا كانت قد هربت قبل يومين. سمعوا بسقوط الحدأ. ففروا.

قال شيخ جبل الشرق:

—جبل الشرق حرة. من اليوم. نحن مع الجمهورية.

المشهد الخامس: مغرب عنس

المكان: مديرية مغرب عنس – شمال دمار

مغرب عنس كانت أكبر من جبل الشرق.

مغرب عنس كانت أرض الثوار. من أيام ثورة ١٩٦٢.

أهل مغرب عنس كانوا في المقدمة. واليوم، كانوا في

المقدمة مرة أخرى.

قال الشيخ عبدالقوي:

— مغرب عنس تعرفنا. نحن لا نحتاج أن نقاتل فيها.

فقط ندخلها.

عندما وصل الثوار إلى مغرب عنس، خرج الناس إلى

الشوارع.

كانوا يهتفون:

— عاشت الجمهورية. عاشت الجمهورية.

قال أحد الشيوخ:

— مغرب عنس معكم. من اليوم. ومن قبل اليوم.

المشهد السادس: معسكر الحمزة

المكان: معسكر الحمزة – شمال مدينة دمار

معسكر الحمزة كان أكبر معسكر للمليشيا في دمار.

كان فيه أطقم مدرعة. مدافع. ذخيرة. ومئات المسلحين.

قال الشيخ عبدالقوي لأحمد:

— هذا هو الهدف الحقيقي. إذا سقط معسكر الحمزة،

سقطت دمار.

قال أحمد:

— كيف ندخل؟

قال الشيخ عبدالقوي:

— لا ندخل من الأمام. المعسكر محصن. لكن هناك ممراً خلفياً. من الجهة الشرقية. يمر عبر وادٍ ضيق. إذا وصلنا إلى هناك، نستطيع أن ندخل من الخلف.
قال أحمد:

— من يعرف هذا الممر؟

قال الشيخ عبدالقوي:

— أنا. مشيت فيه قبل الحرب. قبل أن يبنوا هذا المعسكر.

انطلقوا قبل الفجر.

الممر كان ضيقاً. صخرياً. أشواك تجرح السيقان. الظلام دامس. لا أحد يتكلم.

وصلوا إلى السور الخلفي للمعسكر.

كان هناك حارس واحد. نائم.

قال الشيخ عبدالقوي:

— لا تطلقوا النار. سنأخذه حياً.

زحف أحد الشباب. وصل إلى الحارس. وضع يده على فمه. ثم قيده.

دخلوا المعسكر.

في الداخل، كان الجنود نائمين. لم يتوقعوا أحداً.

قال الشيخ عبدالقوي:

— استسلموا. أو موتوا.

استيقظ الجنود. رأوا البنادق موجهة إليهم. لم يقاتلوا.
رفعوا أيديهم.

قال أحدهم:

— لا تطلقوا النار. نحن مستسلمون.

في غرفة القيادة، وجدوا المشرف.
كان يحاول الهرب من الباب الخلفي. لكن أحمد كان
هناك.

قال المشرف:

— لا تقتلوني.

قال الشيخ عبد القوي:

— لن نقتلك. لكنك ستحاكم.

رفعوا العلم فوق معسكر الحمزة.

قال الشيخ عبد القوي:

— معسكر الحمزة حرة. ذمار على وشك السقوط.

المشهد السابع: مدينة ذمار

المكان: مدينة ذمار — المدخل الشمالي

مدينة ذمار كانت آخر معقل.

كانت المليشيا قد جمعت ما تبقى لها فيها. كانوا يعرفون
أن المدينة ستسقط. لكنهم أرادوا أن يقاتلوا.

قال الشيخ عبد القوي لأحمد:

— هذه المعركة الأخيرة في ذمار. لا نريد أن نخسر رجالاً.

لكن لا نريد أن نهرب.

قال أحمد:

—ماذا نفعل؟

قال الشيخ عبدالقوي:

—نحاصر المدينة. من كل الجهات. لا ندخل. نتركهم.
إذا أرادوا أن يقاتلوا، سيقاتلون. لكنهم لن يستطيعوا
الصمود.

حاصروا المدينة.

في اليوم الأول، لم يحدث شيء.

في اليوم الثاني، بدأت المليشيا تطلق النار. عشوائيًا. من
الخوف.

في اليوم الثالث، حاول بعضهم الهرب. لكن الثوار كانوا
في كل مكان.

في اليوم الرابع، خرج مشرف المدينة. كان يحمل راية
بيضاء.
قال:

—نريد أن نتفاوض.

قال الشيخ عبدالقوي:

—لا تفاوض. إما أن تسلموا، أو نموت جميعًا.

في صباح اليوم الخامس، سلمت المليشيا المدينة.
دخل الثوار.

رفعوا العلم فوق مبنى المحافظة.

قال الشيخ عبدالقوي:

—ذمار حرة.

المشهد الثامن: صدى النصر

المكان: زنزانة الدكتور عبدالعالم القدسي - صنعاء
في زنزانة عبدالعالم كان الحراس يجلسون على الأرض.
لا يتحدثون. وجوههم شاحبة. أحدهم كان يبكي.
سمع عبدالعالم أحدهم يقول:
— ذمار أيضًا. كل ذمار.
رفع عبدالعالم رأسه نحو فتحة التهوية. كان الضوء
يتسلل. فجر جديد. لكن هذه المرة، كان الضوء أقوى.
كان أقرب.
في حصن خولان، وصل الخبر.
وليد قرأ الرسالة على الشاشة. ثم نظر إلى نادية.
قال:
— ذمار. كل ذمار.
نادية كتبت على الورقة: "ذمار. اليوم التاسع".
ثم قالت:
— غدا... صنعاء.

الفصل السادس: الجوف، حجة، والحديدة... اكتمال الطوق

المشهد الأول: الطريق الذي لا نهاية له

المكان: الطريق الدولي (صنعاء - حجة) - نقطة تفتيش المليشيا عند مدخل "مديرية الشغادرة" بعد سقوط مأرب والجوف والبيضاء وتعز وإب وذمار، لم يبقَ لصنعاء سوى منفذين: الشمال، حيث تقع محافظة حجة، والغرب، حيث تقع مدينة الحديدة ومينائها.

كانت المليشيا تعرف أن هذين المنفذين هما شريان الحياة الأخير. كل شيء كان يدخل إلى صنعاء - غذاء، دواء، سلاح، مال - كان يمر عبر هذين الطريقين. في نقطة تفتيش "مديرية الشغادرة"، كان المقدم سلطان القردي يراقب من بعيد. خلفه، كانت الشاحنات متوقفة على الطريق الجبلي. كانت هذه هي المرة الأولى التي يتقدمون فيها نحو حجة. لم يكن الطريق مألوفًا لديهم كما كان طريق مأرب.

إلى جانبه، كان الشيخ صالح الجدعاني يجلس على مقعد خشبي. كان قد رفض أن يبقى في مأرب. قال إنه يريد أن يرى "سقوط آخر معقل". قال سلطان:

—حجة ليست مثل الجوف. حجة قبائل، لكنها قبائل متماسكة. وفيها مشرفون كثر. المليشيا تعرف أن حجة هي بوابة صنعاء من الشمال. لذلك ستدافع عنها. قال الشيخ صالح:

—أعرف. لكن أهل حجة ليسوا مع المليشيا. هم خائفون فقط. مثل غيرهم. قال سلطان:

—إذن، نبدأ من هنا. من الشغادرة. نقطة التفتيش هذه هي أول عقدة.

المشهد الثاني: الشغادرة

المكان: مديرية الشغادرة – نقطة التفتيش في الفجر، تحرك الثوار.

كانت المجموعة هذه المرة أكبر. ثلاثمائة رجل من مأرب والجوف. وانضم إليهم شباب من حجة نفسها. كانوا يعرفون الطرق الجبلية. قال سلطان:

—لا نريد أن ندخل حجة بالقوة. نريد أن نطوقها. نقطة الشغادرة هي المفتاح. إذا سقطت، انهار الطريق. نقطة التفتيش كانت كبيرة. أطقم مدرعة. مدفع رشاش. عشرات المسلحين.

قال سلطان لمراد:

—خذ خمسين رجلاً. اصعد الجبل من الجهة اليمنى. لا تطلق النار حتى تسمع رصاصنا.

قال مراد:

—ونقطة التفتيش؟

قال سلطان:

—سأشغلها من الأمام. عندما تسمع الرصاص، انزل من الجبل. لا تدع أحدًا يهرب من الخلف. نقطة التفتيش كانت كما وصفها سلطان. بوابة حديدية كبيرة. على جانبيها كتل إسمنتية. خلفها طقمان مدرعان. وعشرات المسلحين. وعلى سطح مبنى صغير بجانب البوابة، مدفع رشاش ثقيل. سلطان تقدم بسيارته الأولى. رفع راية بيضاء. توقف على بعد مائة متر.

خرج من السيارة. مشى نحو البوابة.

صرخ أحد المسلحين:

—قف! من أنت؟

قال سلطان:

—أنا الرائد سلطان القردعي. من الجيش اليمني. جئت أتحدث مع المسؤول عن النقطة.

قال المسلح:

—لا يوجد مسؤول. هذه نقطة عسكرية. ارجع.

قال سلطان:

—لن أرجع. سأتحدث مع المشرف. بعد دقائق، خرج رجل من المبنى الصغير.

كان في الثلاثينيات. ثوب شعبي يماني. جعبة عسكرية.
خنجر سالي على حزامه. وجهه قاسٍ. عيناه تنضحان
بالاستعلاء.
قال:

—أنا المشرف. ماذا تريد؟

قال سلطان:

—حجة محاصرة. مأرب سقطت. الجوف سقطت.
ذمار سقطت. لن تستطيعوا الصمود.
ضحك المشرف. ضحكة قصيرة. جافة.
قال:

—حجة ليست مثل غيرها. حجة أرض السلالة. لن
تدخلوها.

قال سلطان:

—حجة أرض اليمن. ليست أرض السلالة. وأنت تعرف
ذلك.

قال المشرف:

—سأعطيك دقيقة واحدة. ارجع أو سأأمر بإطلاق
النار.

قال سلطان:

—لا داعي للدقيقة.

رفع يده.

انطلق الرصاص من كل مكان.

المجموعة الأمامية بدأت بإطلاق النار على البوابة.
المدفع الرشاش على السطح بدأ يرد. لكن مراد كان قد
وصل إلى قمة الجبل.
سمع الرصاص. قال:
—الآن.

انطلقوا من فوق.
كانوا يطلقون النار وهم ينزلون. المليشيا وجدت نفسها
بين نارين. بعضهم حاول الهرب. بعضهم قاتل حتى
الموت. المشرف حاول أن يصل إلى الطقم المدرع لكن
رصاصة أصابت ساقه. سقط على الأرض.
بعد ساعة، سكت الرصاص.
البوابة الحديدية كانت مطروحة على الأرض. الطقمان
المدرعان كانا محترقين. المبنى الصغير كان مليئًا
بالثقوب.

سلطان دخل النقطة.
وجد المشرف على الأرض. كان لا يزال حيًا. ينزف من
ساقه. نظر إلى سلطان بعينين مليئتين بالكراهية.
قال:

—ستندمون. السيد لن يترككم.

قال سلطان:

—السيد؟ أي سيد؟ السيد الذي يسرق النفط؟ السيد
الذي يجوع الأطفال؟ السيد الذي يرسل الزينبيات
لتداهم البيوت؟

جلس على الأرض بجانبه.

قال:

— اسمعني. أنت من نسل السلالة. لكن هذا لا يعني شيئًا. اليمن ليس ملكًا لأحد. اليمن لكل اليمنيين. وقف.

قال:

— سنعالج جرحك. ثم سنرسلك إلى صنعاء. هناك ستحاكم.

رفعوا العلم فوق نقطة الشغادرة.

قال سلطان:

— الطريق إلى حجة مفتوح.

ثم نظر إلى الشمال.

— حجة أماننا.

المشهد الثالث: حجة... المدينة

مدينة حجة كانت مختلفة عن غيرها.

حجة مدينة قديمة. فيها سوق كبير. فيها جامع قديم.

فيها مبانٍ حكومية. وفيها مليشيا كثيفة.

قال سلطان لأحمد:

— حجة ليست مثل الشغادرة. لا يمكن أن ندخلها

بالطريقة نفسها.

قال أحمد:

— إذن ماذا نفعل؟

قال سلطان:

— ننتظر. حجة فيها قبائل. قبائل حجة ليست مع
المليشيا. لكنها خائفة. إذا رأوا أننا انتصرنا في الشغادرة،
سينضمون إلينا.

في اليوم الثاني، وصلت أنباء سقوط الشغادرة إلى حجة.
في سوق حجة، كان الناس يتحدثون. همسًا. خوفًا.
قال رجل:

— سمعت أن الثوار سيطروا على الشغادرة.

قال آخر:

— ليس الثوار. قبائل حجة.

قال الأول:

— نفس الشيء.

قال آخر:

— إذن، حجة بعد الشغادرة.

في تلك الليلة، جاء إلى سلطان ثلاثة من شيوخ حجة.
كانوا خائفين. قال أحدهم:

— يا شيخ. نحن معك. لكننا لا نستطيع أن نتحرك.

المليشيا في حجة كثيرة. إذا تحركنا، يقتلوننا.

قال سلطان:

— لا تتحركوا. فقط انتظروا. عندما نصل، افتحوا لنا

الأبواب.

المشهد الرابع: معركة حجة

المكان: مداخل مدينة حجة

في الفجر، تحرك الثوار نحو حجة.

كانوا أكثر هذه المرة. أربعمئة من قبائل مأرب والجوف وحجة.

قال سلطان:

— لا نريد أن ندمر المدينة. لا نريد أن نقتل الأبرياء. نريد أن ندخلها. فقط.

عند مدخل حجة، كانت المليشيا تنتظر. بدأ الرصاص.

كانت المعركة شرسة. المليشيا كانت تقاتل من داخل المباني. من فوق الأسطح. من النوافذ.

لكن الثوار كانوا يعرفون المدينة. كانوا يعرفون كل زقاق. كل شارع. كل باب.

قال سلطان لمراد:

— خذ خمسين رجلاً. التف من الخلف. من جهة السوق القديم. أنا سأشغلهم من الأمام.

مراد التف.

وصل إلى السوق القديم. كان هناك عدد قليل من المليشيا. فاجأهم. أطلق النار.

سمع سلطان الرصاص من الخلف. قال:

— الآن. تقدم.

دخلوا المدينة.

بعد ثلاث ساعات، سكت الرصاص. قال سلطان:

—حجة حرة.

رفعوا العلم فوق مبنى المحافظة.

المشهد الخامس: الحديدية... ميناء الحياة

المكان: مدينة الحديدية – المدخل الشرقي
الحديدية كانت مختلفة.

الحديدية مدينة ساحلية. فيها ميناء. وفيها مطار. وفيها طرق دولية. كانت شريان الحياة لصنعاء.
قال سلطان:

—الحديدية هي الأهم. إذا سقطت، سقطت صنعاء.
الميناء هو الذي يغذي كل شيء.
قال الشيخ صالح:

—لكن الحديدية ليست مثل حجة. الحديدية فيها مليشيا كثيفة. وفيها مشرفون كثرون. وفيها قوات خاصة.
قال سلطان:

—أعرف. لهذا لن ندخلها مباشرة. سنحاصرها. من البر.
ومن البحر.

المشهد السادس: الحصار

المكان: مدينة الحديدية – المحيط
حاصر الثوار الحديدية.

من الشرق، كان الثوار يتقدمون. من الشمال، كان الثوار يقطعون الطرق. من الجنوب، كان الثوار يسيطرون على المداخل.
قال سلطان:

—لا نريد أن ندمر المدينة. لا نريد أن نقتل الأبرياء.
نريد أن نسقط الميناء. فقط.
في اليوم الأول، لم يحدث شيء.
في اليوم الثاني، بدأت المليشيا تطلق النار. عشوائيًا. من
الخوف.
في اليوم الثالث، حاول بعضهم الهرب. لكن الثوار كانوا
في كل مكان.
في اليوم الرابع، خرج مشرف المدينة. كان يحمل راية
بيضاء.
قال:

—نريد أن نتفاوض.
قال سلطان:

—لا تفاوض. إما أن تسلموا، أو نموت جميعًا.
في صباح اليوم الخامس، سلمت المليشيا المدينة.
دخل الثوار.
رفعوا العلم فوق ميناء الحديد.
قال سلطان:

—الحديدة حرة. الميناء حرة. صنعاء محاصرة من كل
الجهات.

المشهد السابع: اكتمال الطوق

المكان: غرفة العمليات في حصن خولان
في غرفة العمليات، كانت الشاشات تعرض خرائط
اليمن. كانت صنعاء محاصرة من كل الجهات.

قال وليد:

— مأرب. الجوف. البيضاء. تعز. إب. ذمار. حجة.
الحديدة. كلها حرة.
نظر إلى نادية.
قال:

— الطوق اكتمل.
وقفت نادية. كانت عينها تلمع. قالت:
— غدا... الزحف الكبير.

المشهد الثامن: صدى النصر

المكان: زنزانة الدكتور عبدالعالم القدسي - صنعاء
في زنزانة عبدالعالم كان الحراس يجلسون على الأرض.
لا يتحدثون. وجوههم شاحبة. أحدهم كان يبكي.
سمع عبدالعالم أحدهم يقول:
— الحديدة أيضًا. الميناء. كل شيء.
رفع عبدالعالم رأسه نحو فتحة التهوية. كان الضوء
يتسلل. فجر جديد. لكن هذه المرة، كان الضوء أقوى.
كان أقرب.

الفصل السابع: طوق صنعاء... الحصار المفروض

المشهد الأول: الغرفة التي لا تنام

المكان :حصن خولان - غرفة العمليات المركزية
الغرفة كانت تعج بالحياة. شاشات كبيرة معلقة على
الجدران. خرائط حرارية لصنعاء. نقاط حمراء تتحرك.
نقاط خضراء تثبت. أرقام تتغير. أصوات تتداخل.
في وسط الغرفة، كان الرائد سلطان القردي يقف أمام
الخريطة الرئيسية. كان قد وصل قبل ساعتين من
الحديدة. لم ينم منذ ثلاثة أيام. لكن عينيه كانتا لا تزالان
تلمعان.

إلى جانبه، كان وليد يجلس أمام حاسوبه. كان يتابع
تحركات الميليشيا داخل صنعاء. كان يقرأ الرسائل الواردة
من داخل العاصمة.
قال وليد:

—الميليشيا منهارة. كل يوم، يهرب عشرات المسلحين.
يرمون أسلحتهم. يخلعون ثيابهم. يعودون إلى بيوتهم.
قال سلطان:

— هذا ما نريده. لا نريد أن نقاتل جيشًا. نريد أن نقاتل
عصابة. إذا هرب الجيش، بقيت العصابة وحدها.
قالت نادية:

— لكن العصابة لا تزال قوية. لا تزال تسيطر على
المباني الحكومية. على الإذاعة. على التلفزيون. على
المطار.

قال سلطان:

— لهذا سنزحف من أربعة محاور. لن نعطيهم فرصة للهرب.

المشهد الثاني: خطة الزحف

المكان: حصن خولان - غرفة العمليات

كان الجميع مجتمعين. سلطان. الشيخ صالح. الشيخ أبو بلال. نادية. وليد. سارة. الرائد طارق.
قال سلطان:

— الخطة واضحة. أربعة محاور.

فتح الخريطة.

— المحور الأول: من الشمال. من عمران. بقيادة الشيخ أبو بلال. الهدف: السيطرة على المطار.

— المحور الثاني: من الجنوب. من ذمار. بقيادة الرائد طارق. الهدف: السيطرة على جولة الرويشان.

— المحور الثالث: من الشرق. من مأرب. بقيادة الشيخ صالح. الهدف: السيطرة على المنطقة العسكرية.

— المحور الرابع: من الغرب. من الحديدة. بقيادة أنا. الهدف: السيطرة على مبنى الاتصالات.

نظر إلى الجميع.

— التوقيت: بعد غدٍ. الساعة الرابعة فجرًا. في نفس اللحظة.

المشهد الثالث: الليلة الأخيرة

المكان: زنزانة الدكتور عبدالعالم القدسي - صنعاء

في زنزانة عبدالعالم كان الحراس قد هربوا. لم يبقَ إلا واحد. كان يجلس على الأرض. يرتجف.
سمع عبدالعالم صوتًا من الخارج. كان صوت رصاص. بعيدًا. ثم اقترب. ثم سكت.
ثم سمع صوت أقدام. تقترب. ثم توقفت عند باب الزنزانة.
فتح الباب.
كان وليد.
قال:
—دكتور عبدالعالم. حان الوقت.

الفصل الثامن: ليلة الحسم... الزحف الكبير

المشهد الأول: الساعة الرابعة فجرًا

المكان :حصن خولان - غرفة العمليات - ثم المحاور الأربعة

في غرفة العمليات في حصن خولان، كان الضوء أزرق. شاشات كثيرة، كل واحدة تعرض شيئًا مختلفًا. خريطة صنعاء. تحركات المليشيا. رسائل من داخل العاصمة. أرقام تتغير.

سلطان كان واقفًا. لم يجلس منذ ساعتين. كان ينظر إلى الشاشة الرئيسية. صنعاء كانت مقسمة إلى أربعة ألوان. كل لون يمثل محورًا. كل محور له قائد. كل قائد ينتظر إشارة واحدة.

نادية كانت جالسة على كرسي خشبي. كانت تكتب في دفتر صغير. لم تكن تكتب خطة. كانت تكتب أسماء. أسماء من سقطوا منذ بدأت الثورة. أسماء من اعتقلوا. أسماء من هربوا. كانت تحتفظ بالدفتر في جيبها. لم تكن تعرف لماذا. ربما لتتذكر. ربما لتخبر عبدالعالم عندما يخرج.

وليد كان أمام حاسوبه. أصابعه لا تتوقف. كان يقرأ الرسائل الواردة من داخل صنعاء. رسائل قصيرة. لا أسماء. فقط معلومات.

"المنطقة الشرقية: المليشيا تنسحب من نقطتين".

"المطار: تعزيزات وصلت قبل ساعة".

"مبنى الاتصالات: الحراسة مشددة".
"جولة الرويشان: أطقم مدرعة إضافية".
رفع وليد رأسه.
قال:

—الوضع ليس سهلاً. المليشيا تعرف أننا قادمون.
عززت كل النقاط.
سلطان لم يلتفت. كان لا يزال ينظر إلى الشاشة.
قال:

—لا يهم. حتى لو عرفوا. لن يستطيعوا الصمود. ليس
لأننا أقوى. لأنهم لا يقاتلون من أجل شيء. نحن نقاتل
من أجل كل شيء.
في الشمال، عند مدخل عمران، كان الشيخ أبو بلال
يقف أمام رجاله. كانوا مائتين. بعضهم من عمران.
بعضهم من حجة. بعضهم من الجوف. كانوا متعبين.
لكنهم لم يشتكوا.
الشيخ أبو بلال نظر إليهم. لم يقل خطبة. لم يرفع
صوته. قال فقط:

—أنا لا أعرف ماذا سيحدث بعد ساعة. لكنني أعرف
شيئاً واحداً. إذا متنا الليلة، نموت ونحن واقفون. ليس
راكعين.

لم يهتف أحد. فقط إيماءات بالرأس. وبعضهم شدّوا
أحزمة جعابهم.

في الجنوب، عند جولة الرويشان، كان الرائد طارق يراقب من فوق مبنى مهجور. كان المبنى قد قصف قبل سنوات. لم يبقَ منه إلا الجدران. لكنه كان مرتفعًا. كان يرى الجولة كلها.

الجولة كانت فارغة. لا سيارات. لا مازة. فقط أطقم المليشيا. ثلاثة أطقم مدرعة. مدفع رشاش على سطح مبنى صغير. وعشرات المسلحين. بعضهم نائم. بعضهم يتحدث. بعضهم يشرب الشاي.

طارق نظر إليهم. ثم نظر إلى ساعته. لم تكن الرابعة بعد. كانت الثالثة وخمسين دقيقة. قال لمراد:

— سبع دقائق. ثم نتحرك.

مراد لم يرد. كان يراقب أيضًا. كان يعرف الجولة. كان يعرف كل زقاق. كل مدخل. كل ممر. كان قد مشى— في هذه الشوارع قبل الحرب. عندما كانت صنعاء مدينة. لا سجنًا.

في الشرق، عند المنطقة العسكرية، كان الشيخ صالح يجلس في شاحنته. لم يكن ينظر إلى الخارج. كان ينظر إلى صورة صغيرة في يده. صورة ابنه. الذي قتل في الجبهة قبل ثلاث سنوات.

قال لنفسه:

— يا ابني. الليلة سننتصر. أو نموت. لكننا لن نعود إلى الورا.

ثم وضع الصورة في جيبه. وفتح باب الشاحنة.
في الغرب، عند مبنى الاتصالات، كان سلطان... لا.
سلطان لم يكن هناك. سلطان كان في حصن خولان.
كان يدير المعركة من بعيد. لكنه كان يشعر أنه في كل
مكان.

في مبنى الاتصالات، كان مراد. كان معه خمسون رجلًا.
كانوا يعرفون المبنى. كانوا قد رصدوه لأسبوعين. كانوا
يعرفون كل كاميرا. كل حارس. كل باب.
مراد نظر إلى ساعته.
قال:

—ثلاث دقائق.

في زنزانة عبدالعالم تحت الأرض، كان عبدالعالم
مستيقظًا. لم ينم. كان يسمع أصواتًا من بعيد. أصوات
حراس يجرون. أصوات أبواب تفتح وتغلق. أصوات
رصاص. بعيد. ثم أقرب.

ثم سكت كل شيء.

ثم سمع خطوات. تقترب. ثم توقفت عند بابه.

فتح الباب.

كان وليد.

قال:

—دكتور عبدالعالم. حان الوقت.

المشهد الثاني: المحور الغربي - مبنى الاتصالات

المكان: مبنى الاتصالات - شارع الزيري - صنعاء
المبنى كان قابضًا على الشارع كأنه لا يريد أن يفلته. ثمانية طوابق من الخرسانة الزرقاء الباهتة، واجهته الزجاجية مظلمة إلا من ضوء خفيف في الطابق الثالث. أمام البوابة الرئيسية، كتل إسمنتية صغيرة، وطقم مدرع واحد، وثلاثة حراس. واحد منهم كان يجلس على كرسي بلاستيكي، والآخران واقفان. يدخلون.

مراد كان يراقبهم من فوق سطح مبنى مجاور. كان معه خمسون رجلًا. لم يكونوا كلهم مقاتلين. بعضهم كانوا مهندسين. بعضهم كانوا موظفين سابقين في الاتصالات. كانوا يعرفون المبنى أكثر من الحراس أنفسهم. قال مراد لفهد، الشاب الذي أطلق أول رصاصة في حياته في حريب:

— السلم الخلفي. تراه؟

فهد نظر. كان السلم الحديدي ملتصقًا بالجهة الخلفية للمبنى. كان مظلمًا. لم يكن هناك حارس. قال فهد:

— أراه.

قال مراد:

— خذ عشرة رجال. اصعدوا من هناك. لا تطلقوا النار. لا تريدون أن تسمعوا. فقط اصعدوا. انتظروا عند باب

الطابق الثالث. أنا سأكون في الأمام. عندما أطلق النار، ادخلوا.

نزل مراد مع الباقين. عبروا الشارع في صمت. كان الشارع فارغًا. لا سيارات. لا مارة. فقط ضوء الفانوس في يد أحد الحراس.

تقدم مراد وحده. رفع يديه. لم يكن يحمل سلاحًا. صرخ الحارس الذي كان يجلس:
—قف! من أنت؟

قال مراد:

—أنا من الشرطة. جئت أتحدث مع المسؤول.

قال الحارس:

—لا يوجد مسؤول في هذا الوقت. ارجع.

قال مراد:

—لن أرجع.

رفع يده.

في نفس اللحظة، كان فهد قد وصل إلى باب الطابق الثالث. فتح الباب ببطء. كان الممر فارغًا. سمعوا أصواتًا من غرفة في نهاية الممر. أصوات موظفين. يتحدثون. يضحكون. لا يعرفون شيئًا.

فهد رفع يده. توقفوا.

في الأسفل، كان الرصاص قد بدأ.

الحراس الثلاثة سقطوا في ثوان. الطقم المدرع حاول أن يتحرك. لكنه كان محاصرًا. رجالان من مجموعة مراد اقتربا منه من الجانب. أطلقا عليه. توقف. مراد دخل البوابة. كان الممر الرئيسي- فارغًا. لكنه سمع أقدامًا فوقه. جنود ينزلون من الطوابق العليا. قال عبر اللاسلكي:
—فهد. الآن.

فهد دخل.
الممر كان طويلًا. في نهايته، باب زجاجي. خلفه، غرفة التحكم. كان يرى الشاشات. كان يرى الموظفين. خمسة. جالسون. أحدهم كان يرتدي قميصًا أزرق. كان يمسك بفأرة الحاسوب. لم يكن يعرف أن هناك من يقترب. فهد رفع بندقيته. تقدم. ثم فتح الباب.
قال:

—لا تتحركوا.
الموظفون تجمدوا. واحد منهم حاول أن يمد يده نحو زر تحت الطاولة. فهد أطلق رصاصة في الهواء. توقف.
قال فهد:
—قلت لا تتحركوا.

مراد وصل.
نظر إلى الشاشات. كانت تعرض كل شيء. أرقام. عناوين. أسماء. مواقع. كان "يمن نت" هنا. كان كل شيء هنا. قال للموظف الذي كان يرتدي القميص الأزرق:

—أنت. ما اسمك؟

قال الموظف:

—رمزي. مهندس.

قال مراد:

—رمزي. أريد منك شيئًا واحدًا. أوقف كل شيء.

قال رمزي:

—لا أستطيع. النظام مركزي. إذا أوقفته من هنا،
سيوقف كل شيء في اليمن. حتى المستشفيات. حتى
الاتصالات المدنية.

قال مراد:

—لا أريد أن أوقف كل شيء. أريد أن أوقف "يمن نت".
فقط. أريد أن أوقف التجسس.
رمزي نظر إليه. كان خائفًا. لكنه كان يفهم.
قال:

—هناك سيرفر رئيسي. في الطابق السادس. إذا فصلته،
"يمن نت" يسقط. لكن...

قال مراد:

—لكن ماذا؟

قال رمزي:

—لكن هناك نظام احتياطي. إذا فصلت الرئيسي—
سيشتغل الاحتياطي تلقائيًا. خلال دقائق.
مراد نظر إلى فهد. ثم نظر إلى رمزي.
قال:

—إذن، سنفصل الاثنين.
في الطابق السادس، كان هناك غرفة باردة. سيرفرات
كثيرة. أضواء خضراء تلمع. صوت مراوح. لا بشر.
مراد دخل مع رمزي. قال:

—أرني.
رمزي أشار إلى سيرفر كبير في الزاوية.
قال:

—هذا هو الرئيسي.
ثم أشار إلى سيرفر أصغر في الجهة المقابلة.
قال:

—وهذا هو الاحتياطي.
مراد قال لفهد:

—افصل الاثنين.
فهد مد يده. سحب الكابل الأول. ثم الثاني.
الأضواء الخضراء انطفأت. صوت المراوح توقف.
سكتت الغرفة.

قال رمزي:

—انتهى. "يمن نت" سقط.
مراد رفع اللاسلكي.
قال:

—سلطان. "يمن نت" سقط.
سمع صوت سلطان. كان هادئًا. لكن فيه شيئًا. ربما
ارتياحًا.

قال:

—أحسنْتَ. الآن، انزل. سنحتاجك في الجولة.
في الطابق الأرضي، كان الرصاص لا يزال. لكنه كان
يخف. المليشيا في المبنى كانت قد انهارت. بعضهم
هرب. بعضهم استسلم.

مراد خرج من البوابة. كان الشارع لا يزال فارغًا. لكن
هذه المرة، كان هناك صوت مختلف. صوت خطوات.
كثير. قادم من الشرق. كان الثوار يتقدمون. كانوا يعبرون
من مبنى الاتصالات إلى جولة الرويشان.
مراد رفع يده. إشارة. تقدم.

في زنزانة عبدالعالم سمع عبدالعالم صوتًا مختلفًا. لم
يكن رصاصًا. لم يكن صراخًا. كان صوت خطوات. كثير.
قادم من فوق. من الشارع. كان يسمع هتافات. بعيدة.
لكنها واضحة.

"عاشت الجمهورية. عاشت الجمهورية."
رفع عبدالعالم رأسه نحو فتحة التهوية. كان الضوء
يتسلل. لكن هذه المرة، لم يكن ضوء فجر. كان ضوءًا
مختلفًا. كان ضوءًا أقوى. كان ضوء النصر.

المشهد الثالث: المحور الجنوبي - جولة الرويشان
المكان: جولة الرويشان - تقاطع الشوارع الأربعة -
صنعاء

الجولة لم تكن مجرد تقاطع. كانت قلب صنعاء النابض. من هنا، تتفرع الطرق إلى كل مكان. إلى حدة. إلى السبعين. إلى الزيري. إلى الجامعة. من يسيطر على الجولة، يسيطر على العاصمة.

كانت المليشيا تعرف ذلك. لذلك وضعت فيها أفضل ما لديها. ثلاثة أطقم مدرعة. مدفع رشاش ثقيل على سطح مبنى "التأمينات". وعشرات المسلحين. وبينهم مشرف سلالى اسمه أبو حسين. رجل في الأربعينيات. قاس. لا يبتسم. لا يتراجع.

الرائد طارق كان يراقب من فوق مبنى مهجور على بعد مائتي متر. كان المبنى قد قصف في الحرب الأولى. لم يبقَ منه إلا الجدران وبعض الأرضيات. لكنه كان مرتفعًا. كان يرى كل شيء.

إلى جانبه، كان مراد قد وصل للتو من مبنى الاتصالات. كان متعبًا. لكن عينيه كانتا لا تزالان تلمعان.

قال طارق:

—الوضع ليس سهلاً. الأطقم المدرعة في المنتصف. المدفع الرشاش فوق. إذا تقدمنا من الأمام، سنكون أهدافاً سهلة.

قال مراد:

—إذن لا نتقدم من الأمام.

قال طارق:

—من أين؟

قال مراد:

—من الشارع الجانبي. من جهة سوق "باب اليمن".
هناك زقاق ضيق. يؤدي إلى ظهر مبنى التأمينات. إذا
وصلنا إلى هناك، نستطيع أن نصعد إلى السطح. ونأخذ
المدفع الرشاش.

طارق نظر إلى الخريطة. ثم نظر إلى مراد.

قال:

—كم تحتاج من الوقت؟

قال مراد:

—عشرين دقيقة. ربما أقل.

قال طارق:

—خذ عشرين رجلًا. أنا سأشغلهم من الأمام.

انطلق مراد.

الزقاق كان ضيقًا. مظلمًا. رائحة مياه راكدة. قطط تهرب
من بين أقدامهم. مراد كان يتقدم. خلفه العشر—ون.
خطوة بخطوة. بلا صوت.

في نهاية الزقاق، كان هناك جدار. خلفه، مبنى التأمينات.
كان الجدار مرتفعًا. لكن مراد كان قد أحضر حبلًا.

قال لأحد رجاله:

— ارمِ الحبل. اربطه بالماسورة.

في الأمام، بدأ طارق.

انطلق الرصاص من كل مكان. الأطقم المدرعة بدأت تتحرك. المدفع الرشاش على السطح بدأ يرد. كان الصوت يصم الأذان.

أبو حسين، المشرف، كان يقف وسط الجولة. كان يصرخ في اللاسلكي:

— أين التعزيزات؟ أين التعزيزات؟

لم تكن هناك تعزيزات. كل التعزيزات كانت قد سحبت إلى المطار.

مراد وصل إلى سطح مبنى التأمينات.

كان المدفع الرشاش على بعد عشرين مترًا. ثلاثة مسلحين. واحد منهم كان يطلق النار. الآخران كانا يلقيان الذخيرة.

مراد رفع يده. إشارة.

أطلقوا.

المسلحون الثلاثة سقطوا قبل أن يعرفوا ما حدث.

المدفع الرشاش سكت.

مراد رفع اللاسلكي.

قال:

— طارق. المدفع سكت. تقدم.

طارق سمع. رفع يده.

قال:

—الآن.

انطلق رجاله من الأمام. من كل زقاق. من كل مبنى. كانوا يتقدمون نحو الجولة.

أبو حسين رأى ذلك. عرف أن النهاية قادمة. حاول أن يهرب. لكن مراد كان قد نزل من السطح. كان في الشارع الجانبي. كان ينتظره.

قال مراد:

—أبو حسين. توقف.

أبو حسين نظر إليه. كان يعرفه. كان يعرف كل الضباط الأحرار.

قال:

—أنت مراد. كنت في الجيش. لماذا تخون؟

قال مراد:

—أنا لم أخن. أنا فقط لم أعد أقاتل من أجل السلالة. أنا أقاتل من أجل اليمن.

قال أبو حسين:

—اليمن هو السلالة. السلالة هي اليمن.

قال مراد:

—لا. اليمن ليس سلالة. اليمن هو هؤلاء الناس. الذين يقتلون. الذين يجوعون. الذين يعتقلون. اليمن هو أنا. وأنت أيضًا. لكنك لا تعرف.

أبو حسين حاول أن يرفع بندقيته. لكن مراد كان أسرع. أطلق رصاصة في ساقه. سقط.

قال مراد:

— لن أقتلك. ستحاكم.

بعد عشر دقائق، سكت الرصاص.

الجولة كانت مليئة بالدخان. الأطقم المدرعة كانت محترقة. المدفع الرشاش كان مقلوبًا. المسلحون كانوا إما قتلى أو جرحى أو هارين. طارق وصل. نظر إلى الجولة. ثم نظر إلى مراد. قال:

— جولة الرويشان حرة.

رفعوا العلم فوق مبنى التأمينات.

كان العلم قديمًا. ممزقًا. لكنه كان يرتفع. كان يرفرف فوق الجولة. فوق صنعاء. فوق اليمن. في زنزانة عبدالعالم سمع عبدالعالم صوتًا جديدًا. لم يكن رصاصًا. كان هتافًا. "عاشت الجمهورية. عاشت الجمهورية". رفع رأسه. نظر إلى فتحة التهوية. كان الضوء أقوى. كان أقرب.

همس:

— جولة الرويشان. سقطت.

في حصن خولان، وصل الخبر.

وليد قرأ الرسالة على الشاشة. ثم نظر إلى نادية. قال:

— جولة الرويشان. سقطت.

نادية كتبت على الورقة: "جولة الرويشان. الفجر".
ثم قالت:
— المنطقة العسكرية. المطار.

المشهد الرابع: المحور الشرقي – المنطقة العسكرية
المكان: المنطقة العسكرية الشرقية – طريق المطار –
صنعاء

المنطقة العسكرية الشرقية لم تكن معسكرًا واحدًا. كانت مدينة داخل مدينة. جدران إسمنتية عالية. أبراج مراقبة. بوابات حديدية ضخمة. داخلها، مئات المباني. ثكنات. مخازن سلاح. مستودعات ذخيرة. ورش صيانة. مسجد. مستشفى. وحتى سوق صغير.

كانت المليشيا تسميها "القلعة". لأنها لم تسقط من قبل. لا في الحرب الأولى. ولا في الحرب الثانية. ولا في أي اشتباك داخلي.

الشيخ صالح الجدعاني كان يعرف ذلك. كان يعرف أن المنطقة العسكرية ليست مثل جولة الرويشان. ولا مثل مبنى الاتصالات. هنا، لن يكون القتال في شوارع. سيكون في ساحات مفتوحة. بين مباني متباعدة. تحت نيران مباشرة.

نظر إلى الرجال الذين معه. كانوا أربعمائة. من مأرب. من الجوف. من حجة. من عمران. بعضهم كانوا جنودًا سابقين في الجيش اليمني. بعضهم كانوا ضباطًا أحرارًا. بعضهم كانوا شبابًا لم يحملوا سلاحًا قبل الثورة. لكنهم جميعًا كانوا يعرفون لماذا يقاتلون.
قال الشيخ صالح لابنه أحمد:

— المنطقة العسكرية محصنة. لا نستطيع أن ندخل
من البوابة الرئيسية. سنخسر الكثير.
قال أحمد:

— إذن من أين؟

قال الشيخ صالح:

— هناك بوابة خلفية. من جهة الوادي. كان يستخدمها
الجنود للتموين. المليشيا ربما نسيته. ربما لم تعد
تستخدمها. لكنها موجودة.
قال أحمد:

— من يعرف الطريق إلى الوادي؟

قال الشيخ صالح:

— أنا. مشيت فيه قبل عشرين سنة. عندما كنت أبيع
الأغنام في سوق صنعاء. لم أكن أعرف أنني سأعود إليه
محرًا.
انطلقوا.

الشيخ صالح في المقدمة. لم يكن يقود سيارة. كان
يمشي. — مشى — معه أحمد وعشرة رجال. الباقون كانوا
ينتظرون في الشاحنات على بعد كيلومتر.
الوادي كان ضيقًا. صخريًا. مظلمًا. الماء القليل يتسرب
من بين الصخور. الضباب يغطي القاع. لا أحد يتكلم.
بعد نصف ساعة، وصلوا.
البوابة كانت كما قال. حديدية. صغيرة. مغلقة. لكنها لم
تكن مقفلة. فقط مربوطة بحبل.

قال الشيخ صالح:
— لم يعد أحد يستخدمها. لكنها ليست مقفلة. هذا
يعني أن هناك من يمر منها.
قال أحمد:
— من؟

قال الشيخ صالح:
— لا نعرف. لكننا سنعرف.
قطع الشيخ صالح الحبل. فتح البوابة. دخلوا.
كانوا في المنطقة العسكرية. لم يكن هناك حارس. لم
يكن هناك أحد. كان المكان مهجورًا. مباني فارغة. نوافذ
مكسورة. أوراق متناثرة على الأرض.
قال الشيخ صالح:

— هذه ليست القلعة. هذه مجرد منطقة قديمة.
القلعة الحقيقية في الداخل. على بعد كيلومتر. هناك
البوابات. هناك الأبراج. هناك المليشيا.
تقدم أحمد مع خمسين رجلًا. كانوا يتحركون بين المباني.
من مبنى إلى مبنى. من جدار إلى جدار. في صمت.
في أحد المباني، سمعوا أصواتًا. أصوات رجال. يتحدثون.
يضحكون.
تسلل أحمد. نظر من النافذة. كان هناك غرفة. فيها
خمسة جنود. جالسون على الأرض. يأكلون. بنادقهم
على الجدار.

أحمد رفع يده. إشارة. دخلوا. لم يطلقوا النار. فقط
أقروا. قال أحمد بصوت منخفض:

— لا تتحركوا. لن نؤذيكُم.

الجنود تجمدوا. واحد منهم حاول أن يمد يده نحو
بندقيته. لكن أحد رجال أحمد كان أسرع. أخذ البندقية.
قال أحمد:

— من أنتم؟

قال أحد الجنود:

— نحن من المنطقة الرابعة. جاؤوا بنا قبل أسبوع. لا
نعرف شيئًا. لا نعرف لماذا نقاتل. نريد أن نعود إلى
بيوتنا.

قال أحمد:

— إذن اذهبوا. اخلعوا ثيابكم العسكرية. اذهبوا إلى
بيوتكم. لا أحد سيؤذيكُم.

الجنود لم يصدقوا. واحد منهم قال:

— حقًا؟

قال أحمد:

— حقًا. نحن لا نقاتل الجنود. نحن نقاتل المشرفين.

وصلوا إلى القلعة الحقيقية.

كانت البوابات مغلقة. الأبراج مضاعة. المليشيا في كل
مكان. كانوا يعرفون أن الثوار قادمون. كانوا ينتظرون.

قال الشيخ صالح:

—الآن، ننتظر. حتى يبدأ سلطان من الغرب. وحتى يبدأ طارق من الجنوب. عندما يشتعل كل شيء، ندخل نحن.

في الغرب، كان سلطان قد سيطر على مبنى الاتصالات. في الجنوب، كان طارق قد سيطر على جولة الرويشان. سمع الشيخ صالح الرصاص من بعيد. قال:

—الآن.

انطلقوا.

المجموعة الأولى، بقيادة أحمد، اتجهت نحو البوابة الرئيسية. المجموعة الثانية، بقيادة الشيخ صالح، التفت من الجانب. المجموعة الثالثة، ومعظمها من شباب القبائل، صعدت إلى التلال المحيطة. الرصاص بدأ كثيفًا. المليشيا كانت تطلق من الأبراج. من فوق الأسطح. من بين المباني. كانت تطلق قذائف. كانت تطلق كل شيء. لكن الثوار كانوا أكثر. كانوا أقوى. كانوا يعرفون أن النصر—قادم.

في وسط المعركة، كان هناك مشرف سلافي. اسمه أبو ياسر. كان يقف على سطح أحد المباني. كان يصرخ في اللاسلكي:

—أين التعزيزات؟ أين الطيران؟ أين كل شيء؟

لم يكن هناك تعزيزات. لم يكن هناك طيران. كان كل شيء قد انهار.

أبو ياسر نظر إلى الأسفل. رأى الثوار يتدفقون من كل مكان. رأى العلم الجمهوري يرتفع فوق أحد المباني. عرف أن النهاية قادمة.

قال لنفسه:

— انتهى كل شيء.

ثم رمى اللاسلكي. ونزل من السطح. وحاول أن يهرب. لكن أحمد كان في الأسفل. كان ينتظره. قال أحمد:

— أبو ياسر. توقف.

أبو ياسر نظر إليه. كان يعرفه. كان يعرف كل الضباط الأحرار. قال:

— أنت أحمد. ابن الشيخ صالح. كنت في الجيش. لماذا تخون؟

قال أحمد:

— أنا لم أخن. أنا فقط لم أعد أقاتل من أجل السلالة. أنا أقاتل من أجل اليمن.

قال أبو ياسر:

— اليمن هو السلالة. السلالة هي اليمن.

قال أحمد:

— لا. اليمن ليس سلالة. اليمن هو هؤلاء الناس. الذين يقتلون. الذين يجوعون. الذين يعتقلون.
أبو ياسر حاول أن يرفع بندقيته. لكن أحمد كان أسرع.
أطلق رصاصة في ساقه. سقط.
قال أحمد:

— لن أقتلك. ستحاكم.
بعد ثلاث ساعات، سكت الرصاص.
المنطقة العسكرية كانت قد سقطت.
رفع الشيخ صالح العلم فوق المبنى الرئيسي.
قال:

— المنطقة العسكرية حرة.
في زنزانة عبدالعالم سمع عبدالعالم صوتًا جديدًا. لم يكن رصاصًا. كان هتافًا.
"عاشت الجمهورية. عاشت الجمهورية."
رفع رأسه. نظر إلى فتحة التهوية. كان الضوء أقوى. كان أقرب.
همس:

— المنطقة العسكرية. سقطت.
في حصن خولان، وصل الخبر.
وليد قرأ الرسالة على الشاشة. ثم نظر إلى نادية.
قال:

— المنطقة العسكرية. سقطت.
نادية كتبت على الورقة: "المنطقة العسكرية. الفجر".

ثم قالت:
—المطار. المحور الأخير.

المشهد الخامس: المحور الشمالي - المطار
المكان: مطار صنعاء الدولي - طريق المطار - شمال العاصمة

المطار كان آخر شيء.
لم يكن مجرد مبنى. كان بوابة اليمن إلى العالم. كان المدرج الذي تهبط عليه الطائرات. كان البرج الذي يوجهها. كان صالة المغادرة. كان صالة القدوم. كان المستودعات. كان الجمارك. كان كل شيء.
المليشيا كانت تعرف ذلك. لذلك جمعت ما تبقى لها فيه. أطقم مدرعة. مدافع مضادة للطائرات. قناصة على الأسطح. وعشرات المسلحين. وبينهم مشرف سلالي اسمه أبو جبريل. رجل في الثلاثينيات. لم يكن مثل غيره. لم يكن يصرخ. لم يكن يهدد. كان يبتسم. ابتسامة باردة. ابتسامة من يعرف أن النهاية قادمة. لكنه لا يريد أن يعترف.

الشيخ أبو بلال كان يعرف ذلك. كان يعرف أن المطار ليس مثل المنطقة العسكرية. المنطقة العسكرية كانت حرب شوارع. المطار سيكون حرب مفتوحة. مدرج طويل. مبانٍ متباعدة. لا مكان للاختباء.

نظر إلى الرجال الذين معه. كانوا مائتين وخمسين. من عمران. من حجة. من الجوف. من مأرب. بعضهم كانوا

قد قاتلوا في كل المعارك. بعضهم كانوا قد انضموا للتو.
لكنهم جميعًا كانوا يعرفون لماذا يقاتلون.
قال الشيخ أبو بلال لأحد قادته، رجل اسمه صالح
العمرى:

—المطار محصن. لا نستطيع أن ندخل من البوابة
الرئيسية. سنخسر الكثير.
قال صالح:

—إذن من أين؟

قال الشيخ أبو بلال:

—هناك بوابة جانبية. من جهة المستودعات. كان
يستخدمها العمال. المليشيا ربما وضعت عليها حرسًا.
لكنهم ليسوا كثر.
قال صالح:

—من يعرف الطريق إلى المستودعات؟

قال الشيخ أبو بلال:

—أنا. عملت في المطار قبل عشرين سنة. عندما كان
مطارًا. لا معسكرًا.
انطلقوا.

الشيخ أبو بلال في المقدمة. لم يكن يقود سيارة. كان
يمشي. مشى. معه صالح وعشرون رجلًا. الباقون كانوا
ينتظرون في الشاحنات على بعد كيلومترين.
الطريق إلى المستودعات كان ترابيًا. ضيقًا. مظلمًا.
أشجار قديمة على الجانبين. لا أحد يتكلم.

بعد نصف ساعة، وصلوا.
البوابة الجانبية كانت كما قال. حديدية. صغيرة. مغلقة.
لكنها لم تكن مقفلة. فقط مربوطة بسلسلة.
قال الشيخ أبو بلال:
— لم يعد أحد يستخدمها. لكنها ليست مقفلة. هذا
يعني أن هناك من يمر منها.
قال صالح:
— من؟

قال الشيخ أبو بلال:
— لا نعرف. لكننا سنعرف.
قطع الشيخ أبو بلال السلسلة. فتح البوابة. دخلوا.
كانوا في المطار. لم يكن هناك حارس. لم يكن هناك
أحد. كان المكان مهجورًا. مستودعات فارغة. صناديق
مكسورة. أوراق متناثرة على الأرض.
قال الشيخ أبو بلال:

— هذه ليست المطار. هذه مجرد مستودعات. المطار
الحقيقي في الداخل. على بعد كيلومتر. هناك المدرج.
هناك البرج. هناك المليشيا.
تقدم صالح مع خمسين رجلًا. كانوا يتحركون بين
المستودعات. من مبنى إلى مبنى. من جدار إلى جدار. في
صمت.
في أحد المستودعات، سمعوا أصواتًا. أصوات رجال.
يتحدثون. يضحكون.

تسلل صالح. نظر من النافذة. كان هناك غرفة. فيها خمسة جنود. جالسون على الأرض. يأكلون. بنادقهم على الجدار.

صالح رفع يده. إشارة. دخلوا. لم يطلقوا النار. فقط اقتربوا. قال صالح بصوت منخفض:
— لا تتحركوا. لن نؤذيكم.

الجنود تجمدوا. واحد منهم حاول أن يمد يده نحو بندقيته. لكن أحد رجال صالح كان أسرع. أخذ البندقية.
قال صالح:

— من أنتم؟

قال أحد الجنود:

— نحن من المنطقة الخامسة. جاؤوا بنا قبل أسبوع. لا نعرف شيئاً. لا نعرف لماذا نقاتل. نريد أن نعود إلى بيوتنا.

قال صالح:

— إذن اذهبوا. اخلعوا ثيابكم العسكرية. اذهبوا إلى بيوتكم. لا أحد سيؤذيكم.

الجنود لم يصدقوا. واحد منهم قال:
— حقاً؟

قال صالح:

— حقاً. نحن لا نقاتل الجنود. نحن نقاتل المشرفين. وصلوا إلى المطار الحقيقي.

كان المدرج ممتدًا أمامهم. طويلًا. أسود. لا نهاية له.
على الجانب الآخر، كان البرج. كان مضاءً. كان هناك
رجال. كانوا يتحركون.
قال الشيخ أبو بلال:

—الآن، ننتظر. حتى يبدأ سلطان من الغرب. وحتى يبدأ
طارق من الجنوب. وحتى يبدأ الشيخ صالح من الشرق.
عندما يشتعل كل شيء، ندخل نحن.
في الغرب، كان سلطان قد سيطر على مبنى الاتصالات.
في الجنوب، كان طارق قد سيطر على جولة الرويشان.
في الشرق، كان الشيخ صالح قد سيطر على المنطقة
العسكرية.

سمع الشيخ أبو بلال الرصاص من بعيد.
قال:

—الآن.

انطلقوا.

المجموعة الأولى، بقيادة صالح، اتجهت نحو البرج.
المجموعة الثانية، بقيادة الشيخ أبو بلال، اتجهت نحو
المدرج. المجموعة الثالثة، ومعظمها من شباب القبائل،
اتجهت نحو صالات المغادرة والقدوم.
الرصاص بدأ كثيفًا. المليشيا كانت تطلق من البرج. من
فوق الأسطح. من بين الطائرات القديمة. كانت تطلق
قذائف. كانت تطلق كل شيء.

لكن الثوار كانوا أكثر. كانوا أقوى. كانوا يعرفون أن النصر-
قادم.

في وسط المعركة، كان هناك مشرف سلاوي. اسمه أبو
جبريل. كان يقف على سطح البرج. كان يصرخ في
اللاسلكي:

— أين التعزيزات؟ أين الطيران؟ أين كل شيء؟
لم يكن هناك تعزيزات. لم يكن هناك طيران. كان كل
شيء قد انهار.

أبو جبريل نظر إلى الأسفل. رأى الثوار يتدفقون من كل
مكان. رأى العلم الجمهوري يرتفع فوق أحد المباني.
عرف أن النهاية قادمة.
قال لنفسه:

— انتهى كل شيء.
ثم رمى اللاسلكي. ونزل من السطح. وحاول أن يهرب.
لكن صالح العمري كان في الأسفل. كان ينتظره.
قال صالح:

— أبو جبريل. توقف.
أبو جبريل نظر إليه. كان يعرفه. كان يعرف كل الضباط
الأحرار.
قال:

— أنت صالح العمري. كنت في الجيش. لماذا تخون؟
قال صالح:

—أنا لم أخن. أنا فقط لم أعد أقاتل من أجل السلالة.
أنا أقاتل من أجل اليمن.
قال أبو جبريل:

—اليمن هو السلالة. السلالة هي اليمن.
قال صالح:

—لا. اليمن ليس سلالة. اليمن هو هؤلاء الناس. الذين
يقتلون. الذين يجوعون. الذين يعتقلون.
أبو جبريل حاول أن يرفع بندقيته. لكن صالح كان أسرع.
أطلق رصاصة في ساقه. سقط.
قال صالح:

—لن أقتلك. ستحاكم.
بعد ساعتين، سكت الرصاص.
المطار كان قد سقط.
رفع الشيخ أبو بلال العلم فوق البرج.
قال:

—المطار حرة.
في زنزانة عبدالعالم سمع عبدالعالم صوتًا جديدًا. لم
يكن رصاصًا. كان هتافًا.
"عاشت الجمهورية. عاشت الجمهورية."
رفع رأسه. نظر إلى فتحة التهوية. كان الضوء أقوى. كان
أقرب.
همس:
—المطار. سقط.

في حصن خولان، وصل الخبر.
وليد قرأ الرسالة على الشاشة. ثم نظر إلى نادية.
قال:

—المطار. سقط.
نادية كتبت على الورقة: "المطار. الفجر".
ثم قالت:
—اكتمل الطوق. صنعاء حرة.

المشهد السادس: سقوط العاصمة... صنعاء حرة

المكان :شوارع صنعاء – من المطار إلى دار الرئاسة
الشمس لم تكن قد أشرقت بعد. لكن السماء كانت قد
بدأت تتلون بلون رمادي باهت. لون ما قبل الفجر. لون
اللحظة التي يتوقف فيها الليل عن الكلام، ويستعد
النهار ليولد.

في شوارع صنعاء، لم تكن هناك سيارات. لم يكن هناك
مارة. فقط أطقم عسكرية محترقة. كتل إسمنتية
مقلوبة. بنادق مرمية على الأرض. زجاج مكسور. ودماء
جافة على الأسفلت.

في شارع الزبيري، كان مراد يسير مع مجموعته. لم يكن
هناك رصاص. لم يكن هناك مقاومة. فقط صمت.
صمت غريب. صمت بعد معركة. صمت من يعرف أن
كل شيء قد انتهى.

مراد نظر إلى الشارع. رأى رجلاً عجوزاً يفتح باب منزله
ببطء. كان ينظر إلى الخارج. لم يكن يصدق. كان يرى
الثوار. كان يراهم بعينه. كان يرى العلم. العلم
الجمهوري.

قال الرجل العجوز بصوت مرتجف:

—أنتم... أنتم الجمهورية؟

قال مراد:

—نعم. نحن الجمهورية.

الرجل لم يقل شيئاً. فقط جلس على عتبة بابه. ووضع وجهه بين يديه. وبكى. لم يكن بكاء حزن. كان بكاء ارتياح. بكاء من انتظر طويلاً. طويلاً جداً.

في شارع حدة، كان سلطان يقود مجموعته. كان قد ترك مبنى الاتصالات قبل ساعة. كان متعباً. لكنه لم يتوقف. كان يعرف أن صنعاء ليست مبنى واحد. صنعاء مدينة. كل شارع. كل حي. كل زقاق. يجب أن يرفع فيه العلم.

في جولة حدة، كانت هناك أطقم محترقة. كان هناك مسلحون هاربون. خلعوا ثيابهم العسكرية. رموا أسلحتهم. كانوا يمشون في الشوارع. لا أحد يوقفهم. لا أحد يسألهم. كانوا يعرفون أنهم انتهوا.

سلطان نظر إليهم. لم يقل شيئاً. لم يكن يحتاج أن يقول. كانوا يعرفون.

في شارع الستين، كان الشيخ أبو بلال يقود مجموعته. كان قد ترك المطار قبل نصف ساعة. كان يمشي. مع رجاله. لم يكن في سيارة. كان يريد أن يرى صنعاء. يريد أن يرى المدينة التي حوصرت لسنوات. يريد أن يرى الناس.

في شارع الستين، كانت هناك نساء يفتحن النوافذ. كن ينظرن إلى الخارج. كن يرين الثوار. كن يرين العلم. بعضهن كن يبكين. بعضهن كن يهتفن. بعضهن كن يرفعن أيديهن إلى السماء.

امرأة في الخمسينيات فتحت نافذتها. نظرت إلى الشيخ
أبو بلال. قالت بصوت عالٍ:
— يا شيخ. هل انتهى الكهنوت؟
قال الشيخ أبو بلال:
— انتهى.

قالت:

— حقًا؟

قال:

— حقًا.

أغلقت النافذة. ثم فتحتها بعد لحظة. كانت تحمل
صينية. عليها فناجين قهوة. قالت:
— اشربوا. هذا أقل شيء.

في شارع القيادة، كان الشيخ صالح يقود مجموعته. كان
قد ترك المنطقة العسكرية قبل ساعتين. كان يمشي—
ببطء. كان ينظر إلى المباني. إلى الجدران. إلى الشعارات.
شعارات المليشيا. شعارات الكهنوت. شعارات
"الصرخة". كان ينظر إليها. ثم يأمر رجاله بتمزيقها.
قال لأحمد:

— هذه الشعارات. ليست مجرد ألوان. هذه الشعارات
كانت تخيف الناس. كانت تجعلهم يخافون. اليوم، لم
تعد تخيف أحدًا.

أحمد نظر إلى الجدار. كان هناك شعار كبير. "الله أكبر.
الموت لأمريكا. الموت لإسرائيل. لعنة على اليهود. النصر
للإسلام".

أحمد رفع يده. مزق الشعار. قال:
— انتهى.

في شارع تعز، كانت سارة تمشي مع نادية. كانتا قد وصلتا
قبل ساعة من حصن خولان. لم تكونا مقاتلتين. لكنهما
كانتا تريدان أن تكونا في صنعاء. في اللحظة. في التاريخ.
سارة نظرت إلى الشارع. رأت الناس. رأت الأطفال. رأت
النساء. رأت الرجال. كانوا يخرجون من بيوتهم. كانوا
ينظرون. كانوا لا يصدقون.

طفل في الثامنة كان يقف على الرصيف. كان ينظر إلى
الثوار. كان ينظر إلى العلم. قال لأمه:
— ماما. ما هذا؟

قالت أمه:

— هذا العلم. علم الجمهورية.

قال:

— وهل سنعود إلى المدرسة؟

قالت:

— نعم. سنعود.

قال —: وهل سيعود أبي؟

صمتت الأم. لم ترد. لم تكن تعرف. زوجها كان في المعتقل منذ ثلاث سنوات. لم تكن تعرف إن كان حيًا أم ميتًا.

سارة سمعت. توقفت. نظرت إلى الطفل. ثم نظرت إلى نادية. لم تقل شيئًا. لكن عينيها كانتا تلمعان. في شارع الزراعة، كان وليد يمشي— مع مجموعة من الشباب. كانوا يحملون أجهزة اتصال. كانوا يوثقون. كانوا يصورون. كانوا يبثون. كانوا يريدون أن يرى العالم. أن يرى أن صنعاء حرة.

وليد رفع هاتفه. بدأ يبث مباشرة. قال: —هذه صنعاء. هذه العاصمة. هذه اليمن. اليوم، سقط الكهنوت. اليوم، عادت الجمهورية. كان يرى التعليقات تتوالى. من اليمن. من الخليج. من العالم. كان يرى الناس يهتفون. كان يرى الناس يبكون. كان يرى الناس يفرحون.

في دار الرئاسة، كان سلطان قد وصل. كان معه الشيخ صالح. والشيخ أبو بلال. وطارق. ومراد. وأحمد. وصالح العمري. كانوا جميعًا هناك. في الساحة. أمام المبنى. البوابة كانت مفتوحة. لم يكن هناك حرس. المليشيا كانت قد هربت قبل ساعة. تركت كل شيء. تركت الأسلحة. تركت الوثائق. تركت حتى الطعام على الطاولات.

سلطان دخل. مشى- في الممرات. كان المبنى فارغًا. كان الصمت يملأ المكان. صمت غريب. صمت مبنى كان يومًا ما مركزًا للسلطة. والآن، لا أحد فيه. وصل إلى الشرفة. الشرفة التي كان يقف فيها الرؤساء. الشرفة التي كان يخطب منها الزعماء. الشرفة التي كانت تطل على الميدان. على ميدان السبعين. فتح الباب. خرج. نظر إلى الميدان. كان فارغًا. لكنه لم يكن فارغًا. كان هناك ناس. كانوا يتجمعون. كانوا يأتون من كل مكان. من كل شارع. من كل حي. كانوا يعرفون. كانوا يعرفون أن الثوار وصلوا. كانوا يعرفون أن النهاية قادمة.

سلطان رفع العلم. كان العلم كبيرًا. كان يرتفع ببطء. كان يرفرف. فوق دار الرئاسة. فوق صنعاء. فوق اليمن. قال سلطان بصوت عالٍ. كان صوته يصل إلى الميدان. إلى الناس. إلى التاريخ:

— يا أهل صنعاء. يا أهل اليمن. اليوم، سقط الكهنوت. اليوم، عادت الجمهورية. اليوم، عاد اليمن. الميدان انفجر. هتافات. تكبير. بكاء. زغاريد. كانت النساء تزغرد من النواقد. كان الرجال يهتفون. كان الأطفال يرقصون. كان الشيوخ يبكون.

في زنزانة عبدالعالم كان الباب مفتوحًا. كان عبدالعالم يقف. كان جسده متعبًا. كان وجهه مليئًا بالجراح. لكن

عينيه كانتا تلمعان. كان يسمع الهتافات. كان يسمع
التكبير. كان يسمع الزغاريد. كان يسمع صنعاء.
وليد دخل. كان وجهه متعبًا. لكنه كان يبتسم. قال:
— دكتور عبدالعالم. صنعاء حرة.
عبدالعالم لم يرد. فقط نظر إلى فتحة التهوية. كان
الضوء يتسلل. لكن هذه المرة، لم يكن ضوء فجر. كان
ضوءًا مختلفًا. كان ضوء النصر.
قال — الحمد لله.

الفصل التاسع: سقوط آخر معاقل الكهنوت
المشهد الأول: المبنى الذي كان يخيف الجميع
المكان: مبنى الأمن والمخابرات الموحد - المبنى السابق
للأمن القومي - صنعاء

المبنى كان يقف في نهاية شارع طويل. لم يكن مبنى
عاديًا. كان أشبه بقلعة. جدرانه سميقة. نوافذه صغيرة.
بوابته الحديدية ثقيلة. فوق البوابة، كاميرا مراقبة.
تحتها، لوحة معدنية كتب عليها: "ممنوع الاقتراب -
منطقة أمنية."

لثلاثين سنة، كان هذا المبنى يخيف الناس. كانوا يمرون
من أمامه بسرعة. لا ينظرون. لا يتوقفون. كانوا يعرفون
أن من يدخل هذا المبنى، لا يخرج. أو إذا خرج، يخرج
مكسورًا.

سلطان كان يعرف ذلك. كان يعرف أن هذا المبنى هو
آخر معقل. ليس لأنه محصن. بل لأنه رمز. رمز القمع.
رمز الخوف. رمز الكهنوت.

نظر إلى الرجال الذين معه. كانوا خمسين. من الضباط
الأحرار. من شباب القبائل. من الثوار الذين قاتلوا في كل
المعارك.

قال:

— هذا المبنى ليس مثل غيره. هذا المبنى هو قلب
الظلام. إذا سقط، سقط كل شيء.
قال مراد:

—وماذا فيه؟

قال سلطان:

—فيه الوثائق. فيه السجون. فيه المعتقلون. فيه كل شيء. كل جريمة. كل تعذيب. كل اعتقال. مسجل هنا. قال مراد:

—إذن لن نهدمه.

قال سلطان:

—لا. سنفتحه.

المشهد الثاني: البوابة

المكان: البوابة الرئيسية لمبنى الأمن والمخابرات
البوابة كانت مغلقة. الحراس كانوا قد هربوا. لكن المبنى لم يكن فارغًا. كان هناك من بقي. كان هناك من قرر أن يقاتل. أو أن يموت.
سلطان تقدم. لم يكن يحمل سلاحًا. رفع يديه.

قال بصوت عالٍ:

—هذا الرائد سلطان القردعي. صنعاء سقطت.
المنطقة العسكرية سقطت. المطار سقط. لا يوجد مكان تهريبون إليه. افتحوا البوابة. لن نؤذي أحدًا. نريد فقط أن نفتح السجون.

صمت.

ثم صوت من الداخل. صوت رجل. مرتجف. خائف.
قال:

—لا نستطيع. إذا فتحنا، سيقتلوننا.

قال سلطان:

— من سيقتلکم؟ المليشيا انتهت. المشرفون هربوا.
أنتم وحدکم. افتحوا.
صمت آخر.

ثم صوت آخر. صوت امرأة. كانت تتکلم من خلف
البوابة.
قالت:

— نحن موظفون. لا علاقة لنا بالتعذيب. نحن فقط
نعمل هنا. نكتب الأوراق. نسجل الأسماء. لا نعذب
أحدًا.

قال سلطان:

— أعرف. لا نريد أن نؤذیکم. افتحوا. ثم اذهبوا إلى
بيوتکم.
صمت.

ثم صوت الحديد. البوابة تفتح ببطء.

المشهد الثالث: الداخل

المكان: داخل مبنى الأمن والمخابرات - الطابق الأول
سلطان دخل. خلفه مراد. خلفه خمسون رجلًا.
الممرات كانت طويلة. إضاءة نيون بيضاء. جدران
رمادية. أبواب معدنية. لا نوافذ. لا هواء. رائحة رطوبة.
رائحة عرق. رائحة خوف قديم.
في الطابق الأول، كانت هناك مكاتب. موظفون. رجال
ونساء. كانوا جالسين. لا يتحركون. كانوا خائفين.

سلطان نظر إليهم. قال:
— اذهبوا. إلى بيوتكم. لا أحد سيؤذيكُم.
لم يتحرك أحد. كأنهم لم يصدقوا.
قال مرة أخرى:
— اذهبوا.

ثم قام رجل. كان في الخمسينيات. كان يرتدي قميصًا
رماديًا. كان يمسك بملف. قال:
— نحن... نحن لا نعرف الطريق. كنا نأتي هنا كل يوم.
لكننا لا نعرف كيف نخرج.
سلطان نظر إليه. أدرك أن هؤلاء ليسوا جلادين. هؤلاء
موظفون. موظفون صغار. كانوا يأتون كل يوم. يسجلون
الأسماء. يكتبون التقارير. ثم يعودون إلى بيوتهم. لم
يكونوا يعذبون. لم يكونوا يقتلون. لكنهم كانوا جزءًا من
الآلة.
قال:

— اخرجوا من البوابة. ثم امشوا في الشارع. إلى اليمين.
ثم إلى اليسار. ستجدون أنفسكم في شارع الزيري.
الرجل شكره. ثم خرج. خلفه آخرون. خرجوا جميعًا. لم
يبق أحد.

المشهد الرابع: السجون

المكان: الطابق السفلي - السجون
الطابق السفلي كان مختلفًا. لم يكن هناك نيون أبيض.
كان هناك ضوء خافت. أصفر. كشافات قديمة. جدران

رطبة. ماء يتسرب من السقف. أبواب حديدية. زنازين صغيرة. لا يتسع الواحد منها إلا لرجل واحد. واقعًا. سلطان نزل. خلفه مراد. خلفه عشرة رجال. الممر كان طويلاً. على الجانبين، زنازين. بعضها فارغ. بعضها فيه رجال. جالسون على الأرض. رؤوسهم بين أيديهم. لا يتحركون. كأنهم أموات. لكنهم ليسوا أمواتًا. كانوا يسمعون الأصوات. كانوا يسمعون أن شيئًا يحدث. لكنهم لم يكونوا يصدقون. سلطان توقف عند أول زنزانة. كان فيها رجل. في الأربعينيات. نحيف. لحيته طويلة. شعره أشعث. وجهه شاحب. كان ينظر إلى الأرض.

قال سلطان:

— أنت. ما اسمك؟

الرجل لم يرد. لم يرفع رأسه.

قال سلطان:

— لن نؤذيك. نحن الثوار. صنعاء حرة. سنخرجك.

الرجل رفع رأسه ببطء. نظر إلى سلطان. كان ينظر إليه كأنه يرى شبحًا. قال بصوت مبحوح:

— أنت... أنت حقيقي؟

قال سلطان:

— حقيقي.

الرجل حاول أن يقف. لكنه لم يستطع. كان جسده قد نسي كيف يقف. سقط على الأرض. ثم بكى.

سلطان أمر رجاله بفتح كل الزنازين.
كانت هناك عشرات الزنازين. في كل زنزانة، رجل. أو امرأة. أو طفل. كانوا جميعًا قد اعتقلوا. بعضهم منذ سنة. بعضهم منذ ثلاث سنوات. بعضهم منذ خمس. كانوا جميعًا قد تعرضوا للتعذيب. كانوا جميعًا قد فقدوا الأمل. كانوا جميعًا قد نسوا كيف يبتسمون.
لكنهم الآن يخرجون. واحدًا واحدًا. يخرجون إلى الممر. ينظرون إلى بعضهم. لا يصدقون. ثم يبكون. ثم يهتفون. ثم يسجدون.
في إحدى الزنازين، كان هناك رجل. في الستينيات. كان قد اعتقل قبل ست سنوات. كان أستاذًا في الجامعة. كان قد كتب مقالًا. مقالًا واحدًا. عن الحرية.
سلطان فتح زنزنته. قال:
— أنت حر.
الرجل نظر إليه. قال:
— حر؟
قال سلطان:
— نعم. حر.
الرجل قام. كان جسده متعبًا. لكنه وقف. ثم مشى—. خطوة. خطوتين. ثم خرج من الزنزانة. ثم نظر إلى سلطان. قال:

—ست سنوات. ست سنوات وأنا أنتظر هذه اللحظة.
كنت أعرف أنها ستأتي. كنت أعرف أن اليمن لن يبقى
سجينًا.
ثم بكى.

المشهد الخامس: الوثائق

المكان: غرفة الأرشيف – الطابق الثالث
في الطابق الثالث، كانت غرفة الأرشيف. كانت مليئة
بالملفات. رفوف. رفوف. رفوف. كل رف كان مليئًا
بالملفات. كل ملف كان يحمل اسمًا. كل اسم كان يحمل
قصة.

سلطان دخل. نظر إلى الرفوف. قال:
—هذه ليست أوراقًا. هذه أرواح.
مد يده. سحب ملفًا. فتحه. كان ملفًا لرجل. اسمه.
عمره. عنوانه. تاريخ اعتقاله. سبب اعتقاله. كلمة
واحدة: "خيانة". لا تفاصيل. لا أدلة. فقط كلمة واحدة.
"خيانة".

قال سلطان:
—هذا هو الكهنوت. كلمة واحدة. تكفي لسجن رجل.
تكفي لتعذيبه. تكفي لقتله.
رمى الملف على الأرض. ثم قال:
—لا نحرقها. هذه أدلة. سنحاكمهم بها.

المشهد السادس: القبو

المكان: القبو – تحت الأرض

القبو كان مختلفًا. لم يكن مثل السجون. كان أكبر. كان أكثر رعبًا. كانت هناك غرف. غرف تعذيب. أجهزة كهربائية. كابلات. كراسي حديدية. أحزمة جلدية. دماء جافة على الجدران. على الأرض. على السقف. سلطان دخل. توقف. نظر. لم يقل شيئًا. لم يكن يحتاج أن يقول. كان المكان يتكلم عن نفسه. مراد دخل خلفه. نظر. ثم قال: — هذا ليس سجنًا. هذا مسلخ. قال سلطان:

— نعم. هذا مسلخ. مسلخ الكهنوت. خرج. لم يستطع أن يبقى. خرج إلى الشمس. تنفس. كان الهواء نقيًا. كان الهواء مختلفًا. كان هواء الحرية.

المشهد السابع: العلم فوق المبنى

المكان: سطح مبنى الأمن والمخابرات

سلطان صعد إلى السطح. كان معه مراد. ومعهم العلم. رفعوه. كان العلم كبيرًا. كان يرفرف فوق المبنى. فوق المبنى الذي كان يخيف الناس. فوق المبنى الذي كان رمزًا للقمع. الآن، أصبح رمزًا للحرية. قال سلطان:

— هذا المبنى. هذا المبنى الذي كان يخيفنا. أصبح مبنى للشعب. من اليوم، لن يدخله إلا من يريد الحق. من يريد العدالة.

نظر إلى الأسفل. كان هناك ناس. كانوا يتجمعون. كانوا ينظرون إلى العلم. كانوا يهتفون.
قال:

—سقط آخر معقل. سقط الكهنوت.

المشهد الثامن: صدى النصر

المكان: زنزانة الدكتور عبدالعالم القدسي- صنعاء
في زنزانة عبدالعالم كان عبدالعالم قد خرج. لم يكن في زنزنته. كان في غرفة صغيرة. كان يجلس على كرسي. كان يشرب شايًا. كان قد استحم. كان قد غير ثيابه. كان قد بدأ يبدو مثل إنسان مرة أخرى.
دخل وليد. قال:

—دكتور عبدالعالم. آخر معقل. سقط.

عبدالعالم وضع كوب الشاي. نظر إلى وليد. قال:
—المبنى؟

قال وليد:

—نعم. المبنى. السجون فُتحت. المعتقلون خرجوا.
الوثائق حُفظت. القبو أُغلق. العلم رُفع.
عبدالعالم صمت. ثم قال:
—الحمد لله.

ثم قام. مشى. إلى النافذة. نظر إلى الخارج. كانت صنعاء.
كانت مدينته. كانت مدينته التي حلم بها. كانت مدينته التي كتب عنها. كانت مدينته التي ضحى من أجلها.
قال:

—لقد انتهى. حقًا انتهى.

لفصل العاشر: إعلان النصر... صنعاء حرة المشهد الأول: الميدان الذي انتظر طويلاً المكان: ميدان السبعين - صنعاء

ميدان السبعين لم يكن مجرد ساحة. كان ذاكرة اليمن. هنا، احتفل الناس بالثورة. هنا، خطب الرؤساء. هنا، وقف الجنود. هنا، بكى الثوار. هنا، ماتت الجمهورية. واليوم، هنا، تولد من جديد.

منذ الصباح، كان الناس يتوافدون. من كل حي. من كل شارع. من كل قرية حول صنعاء. كانوا يأتون مشياً. كانوا يأتون بسيارات قديمة. كانوا يأتون على دراجات. كانوا يأتون حفاة. كانوا يأتون بكل شيء. لكنهم كانوا يأتون. في الميدان، كانت الأعلام ترفرف. أعلام الجمهورية. أعلام اليمن. أعلام بيضاء. أعلام حمراء. أعلام سوداء. أعلام كتب عليها: "عاشت الجمهورية". "سقط الكهنوت". "الحرية لليمن".

كان هناك أطفال. كانوا يحملون الأعلام الصغيرة. كانوا يركضون بين الناس. كانوا يضحكون. كانوا يهتفون. لم يكونوا يعرفون معنى الكهنوت. لكنهم كانوا يعرفون معنى الفرح.

كان هناك شيوخ. كانوا يجلسون على الأرض. كانوا يمسكون بسبحاتهم. كانوا يبكون. لم يكونوا يبكون

حزنًا. كانوا يبكون فرحًا. كانوا يبكون لأنهم عاشوا ليروا هذه اللحظة.

كانت هناك نساء. كن يزغردن. كن يهتفن. كن يرفعن أيديهن إلى السماء. كن يشكرن الله. كن يشكرن الثوار. كن يشكرن كل من ضحى.

كان هناك شباب. كانوا يرفعون لافتات. كانوا يهتفون. كانوا يرقصون. كانوا يعرفون أن هذا اليوم ليس يومًا عاديًا. هذا اليوم هو اليوم الذي انتظروه منذ سنوات.

المشهد الثاني: المنصة

المكان :منصة ميدان السبعين

المنصة كانت بسيطة. لم تكن مثل منصات الماضي. لم تكن مطلية بالذهب. لم تكن مزينة بالثريات. كانت مجرد منصة خشبية. عليها ميكروفون. وعلم الجمهورية. وبعض الكراسي.

على الكراسي، جلس القادة. سلطان القردي. الشيخ صالح الجدعاني. الشيخ أبو بلال. الرائد طارق. مراد أحمد. صالح العمري. نادية. وليد. سارة. وبعض الضباط الأحرار. وبعض شيوخ القبائل. وبعض ممثلي المحافظات.

لكن الكرسي الذي كان في المنتصف كان فارغًا. لم يكن فارغًا لأنه لا أحد يستحقه. كان فارغًا لأنه كان ينتظر أحدًا.

المشهد الثالث: وصول زيد

المكان: مدخل ميدان السبعين

سيارة قديمة توقفت عند مدخل الميدان. لم تكن سيارة فاخرة. كانت سيارة عادية. بيضاء. قديمة. لكن الناس عرفوها. عرفوا من فيها.

فتح الباب. نزل رجل. كان في الستينيات. كان نحيفًا. كان وجهه مليئًا بالجراح. كان يمشي— ببطء. كان يتوكأ على عصا. لكنه كان يمشي. كان يمشي بنفسه.

كان الدكتور عبدالعالم العنسي.

الناس رأوه. صمت الميدان. صمت كامل. كأن الزمن توقف. ثم انفجر. هتافات. تكبير. زغاريد. بكاء. كانوا يهتفون:

—زيد! زيد! زيد!

كانوا يرفعون أيديهم. كانوا يرفعون الأعلام. كانوا يريدون أن يلمسوه. أن يقبلوه. أن يحملوه على أكتافهم.

عبدالعالم كان يمشي. لم يكن يستطيع أن يرفع يده. كان جسده متعبًا. لكنه كان يبتسم. كانت ابتسامته مختلفة. كانت ابتسامة من انتصر. ابتسامة من رأى حلمه يتحقق.

سلطان نزل من المنصة. مشى— نحوه. وصل إليه. احتضنه. لم يقل شيئًا. لم يكن يحتاج أن يقول. كان العناق كافيًا.

ثم قال عبدالعالم بصوت منخفض:

—لقد فعلتموها.

قال سلطان:

— فعلناها معًا.

المشهد الرابع: الكلمة

المكان: منصة ميدان السبعين

عبدالعالم صعد إلى المنصة. ببطء. كان يتوكأ على عصاه. كان جسده يتألم. لكنه كان يقف. كان يقف أمام الناس. أمام اليمن. أمام التاريخ.

وصل إلى الميكروفون. نظر إلى الميدان. كان الميدان مليئًا. لم يعد يستطيع أن يرى نهايته. كان يرى بحرًا من البشر. بحرًا من الأعلام. بحرًا من الأمل.

رفع يده. سكت الميدان. صمت كامل. لا أحد يتكلم. لا أحد يتحرك. كانوا ينتظرون. كانوا ينتظرون كلماته. بدأ يتكلم. كان صوته متعبًا. لكنه كان واضحًا. كان يصل إلى كل مكان.

قال:

— يا أهل صنعاء. يا أهل اليمن. يا أحفاد الجمهورية.

توقف. نظر إلى الميدان. ثم أكمل:

— قبل ستة أشهر، كنت في زنزانة. تحت الأرض. كنت أكتب. كنت أكتب كلمات. كنت أكتب "الخط الأحمر". كنت أكتب لأنني كنت أعرف أن الكلمة أقوى من الرصاص. كنت أعرف أن الحقيقة لا تموت. توقف. شرب رشفة ماء. ثم أكمل:

—اليوم، أنا أقف هنا. ليس لأنني بطل. أنا لست بطلاً.
الأبطال هم الذين ماتوا. الأبطال هم الذين سجنوا.
الأبطال هم الذين عذبوا. الأبطال هم الذين صمدوا.
الأبطال هم أنتم.

أشار إلى الميدان.

—أنتم. كل واحد منكم. الذي خرج في المظاهرات.
الذي وزع المنشورات. الذي أخفى الثوار. الذي أطعم
الجائعين. الذي عالج الجرحى. الذي دفن الشهداء. أنتم
الأبطال.

توقف. ثم قال:

—اليوم، سقط الكهنوت. ليس لأننا أقوى. لأننا كنا
على حق. لأن اليمن ليس سلاله. اليمن ليس كهنوتاً.
اليمن ليس مشرفين. اليمن هو أنتم. اليمن هو هؤلاء
الأطفال. اليمن هو هؤلاء النساء. اليمن هو هؤلاء
الشيخوخ. اليمن هو كل من قال: لا.
رفع صوته قليلاً:

—اليوم، نبدأ من جديد. اليوم، نبي الجمهورية الثانية.
جمهورية لا تعتقل الأحرار. جمهورية لا تجوع الأطفال.
جمهورية لا تبيع النفط لشراء السلاح. جمهورية تحترم
الإنسان. جمهورية تحترم المرأة. جمهورية تحترم كل
يمني.

ثم قال الجملة الأخيرة:

—عاشت الجمهورية. عاش اليمن. عاشت الحرية.

المشهد الخامس: الميدان

المكان: ميدان السبعين

الميدان انفجر.

هتافات. تكبير. زغاريد. بكاء. كانوا يهتفون:

— عاشت الجمهورية! عاشت الجمهورية! عاشت الجمهورية!
الجمهورية!

كانوا يرفعون الأعلام. كانوا يرفعون أيديهم. كانوا يرفعون أطفالهم. كانوا يريدون أن يروا. يريدون أن يكونوا جزءًا من هذه اللحظة.

في زاوية من الميدان، كانت هناك امرأة عجوز. كانت في السبعينيات. كانت تجلس على كرسي خشبي. كانت تمسك بعلم صغير. كانت تبكي. لم تكن تبكي حزنًا. كانت تبكي فرحًا. قالت لابنتها:

— لقد عشت لأرى هذا اليوم. لقد عشت لأرى سقوط الكهنوت.

في زاوية أخرى، كان هناك شاب. كان في العشرينيات. كان قد قاتل في المعارك. كان قد رأى أصدقاءه يموتون. كان يقف. كان ينظر إلى المنصة. كان يبكي. قال لصديقه:

— لقد انتصرنا. حقًا انتصرنا.

في زاوية ثالثة، كان هناك طفل. كان في الثامنة. كان قد فقد أباه في الحرب. كان قد فقد أخاه في المعتقل. كان يقف. كان ينظر إلى العلم. قال لأمه:

— ماما. هل انتهت الحرب؟

قالت أمه:

— نعم يا بني. انتهت.

قال:

— هل سنعود إلى بيتنا؟

قالت:

— نعم. سنعود.

قال:

— هل سنزرع الحقل مرة أخرى؟

قالت:

— نعم. سنزرع.

قال:

— هل سنكون سعداء؟

صمتت الأم. ثم قالت:

— نعم. سنكون سعداء.

المشهد السادس: بعد الميدان

المكان: دار الرئاسة — غرفة صغيرة

بعد أن انتهى الاحتفال، دخل القادة إلى دار الرئاسة.

جلسوا في غرفة صغيرة. كانوا متعبين. لكنهم كانوا

سعداء.

قال سلطان:

— اليوم، انتهت المرحلة الأولى. غدًا، تبدأ المرحلة

الثانية.

قال الشيخ صالح:

— ما هي المرحلة الثانية؟

قال سلطان:

— بناء الدولة. انتخاب مجلس. كتابة دستور. محاكمة المجرمين. إعادة الأموال المنهوبة. إعادة المهجرين. إعادة بناء ما دمر.

قالت نادية:

— هذه مهمة صعبة.

قال سلطان:

— نعم. لكننا فعلنا الأصعب. أسقطنا الكهنوت. الباقي سيكون أسهل.

قال زيد:

— لا. الباقي سيكون أصعب. لأن بناء الدولة أصعب من هدمها. لكننا سنفعل. لأننا لا نملك خيارًا آخر.

المشهد السابع: في الخارج

المكان: شوارع صنعاء

في شوارع صنعاء، كانت الحياة تعود. كانت المحلات تفتح. كان الناس يمشون. كان الأطفال يلعبون. كان الباعة يبيعون. كان كل شيء يعود.

في شارع الزيري، كان هناك رجل يبيع الفول. كان قد أغلق محله منذ سنوات. اليوم، فتحه. كان يبيع الفول. كان الناس يأتون. كانوا يأكلون. كانوا يضحكون.

في شارع حدة، كانت هناك امرأة تبيع الخبز. كانت قد فقدت زوجها في الحرب. كانت قد بقيت وحيدة. اليوم، كانت تبيع الخبز. كانت تبسم. في شارع تعز، كان هناك أطفال يلعبون الكرة. كانوا يركضون. كانوا يضحكون. لم يكونوا يعرفون أن هناك حربًا. لم يكونوا يعرفون أن هناك كهنوتًا. كانوا يعرفون فقط أنهم أطفال. وأنهم أحرار.

المشهد الثامن: صدى النصر

المكان: حصن خولان - غرفة العمليات
في حصن خولان، كانت الغرفة فارغة. لم يكن هناك أحد. فقط الشاشات. كانت تعرض الأخبار. كانت تعرض الاحتفالات. كانت تعرض صنعاء. على الشاشة، كان عبدالعالم يتكلم. كان يخطب. كان يقول:

— عاشت الجمهورية. عاش اليمن. عاشت الحرية.
على الشاشة، كان الميدان يهتف. كان يهتف:
— عاشت الجمهورية! عاشت الجمهورية!
على الشاشة، كانت الأعلام ترفرف. كانت ترفرف فوق صنعاء. فوق اليمن. فوق التاريخ.

الفصل الحادي عشر: القبض على رأس الكهنوت

المشهد الأول: الهاربون

الزمان :صباح اليوم التالي للنصر. – الساعة السادسة إلا

عشر _____ دقائق _____

المكان :شقة صغيرة في حي الجراف – صنعاء

الرصاص توقف.

لكن الخوف لم يتوقف. الخوف كان قد انتقل. من الشوارع إلى الغرف. من الميدان إلى الأقبية. من العلن إلى السر. كان الخوف الآن يسكن في صدور من كانوا يخيفون الناس.

في شقة صغيرة في حي الجراف، كان عبدالحكيم الخيواني يجلس على الأرض. كان قد خلع بزته العسكرية. كان يرتدي ثوبًا مدنيًا. قديمًا. كان قد خلع حتى ساعته. كان قد خلع كل شيء. إلا الخوف.

أمامه، كان جعفر المرهبي. كان قد وصل قبل ساعة. كان وجهه شاحبًا. كان قد هرب من مكتبه في "أمن الثورة" عندما سمع أن المطار سقط. لم يأخذ معه شيئًا. لا وثائق. لا مال. لا سلاح. فقط نفسه.

قال الخيواني بصوت مبجوح:

— صنعاء سقطت.

قال المرهبي:

— نعم.

قال الخيواني:

— ماذا نفعل؟

قال المرهبي:

— لا أعرف. لا أحد يعرف. عبدالكريم اختفى. علي حسين اختفى. محمد حسين اختفى. حتى "المهرب" اختفى.

قال الخيواني:

— إذن، نحن وحدنا.

قال المرهبي:

— نعم. وحدنا.

صمت.

ثم قال الخيواني:

— يجب أن نهرب. إلى صعدة. إلى مران. هناك لا يزالون. هناك لا يزال الأنصار. هناك لا يزال السلاح. قال المرهبي:

— الطرق كلها مغلقة. الثوار في كل مكان. في مأرب. في الجوف. في حجة. في الحديدة. لا مخرج.

قال الخيواني:

— إذن ماذا نفعل؟

قال المرهبي:

— نختبئ. حتى يهدأ كل شيء. ثم نرى.

المشهد الثاني: البيت الطيني

المكان: قرية "بني حشيش" — شرق صنعاء — بيت طيني قديم

البيت كان في نهاية القرية. بعيدًا عن الطريق الرئيسي—. بعيدًا عن الأنظار. بيت طيني قديم. جدرانها سميكة. سقفه من الخشب والقش. بابه خشبي. صغير. لا يلفت الانتباه.

كان البيت لعائلة فقيرة. عائلة لم تكن تعرف من هو الضيف. فقط، جاءهم رجل قبل يومين. رجل في الخمسينيات. قال إنه مسافر. قال إنه يريد أن ينام ليلة واحدة. قال إنه سيدفع. لم يكن معه مال كثير. لكن العائلة قبلت. العائلة كانت فقيرة. وكانت طيبة.

الرجل لم يكن مسافرًا. الرجل كان **عبدالملك الحوئي**. كان قد هرب من صعدة قبل ثلاثة أيام. عندما سمع أن صنعاء سقطت. وأن الطوق اكتمل. وأن الثوار يتقدمون من كل مكان. لم ينتظر. لم يجمع شيئًا. لم يودع أحدًا. فقط، ركب سيارة صغيرة. واتجه جنوبًا. إلى صنعاء. ليس ليقاتل. بل ليختبئ. كان يعرف أن صعدة ستكون أول مكان يبحثون فيه. كان يعرف أن مران ستكون أول هدف. كان يعرف أن الكهوف التي كان يختبئ فيها أيام الحرب الأولى لم تعد آمنة. لذلك، اختار صنعاء. المدينة التي كان يحكمها. المدينة التي كان يظن أنها له. المدينة التي كان يعرف أنه إذا اختبأ فيها، لن يجده. لكنه أخطأ.

في الغرفة الصغيرة، كان **عبدالملك** مستلقيًا على سرير خشبي. كان السرير قديمًا. خشبه متآكل. فراشه من

القش. كان يتقلب. لم يكن يستطيع أن ينام. كان يسمع أصواتًا. أصوات بعيدة. أصوات كلاب. أصوات رياح. لكنه كان يسمع أيضًا أصواتًا في رأسه. أصوات الماضي. أصوات الذين قتلهم. أصوات الذين سجنهم. أصوات الذين جوعهم. كانوا جميعًا هناك. في رأسه. لا يتركونه. فتح عينيه. نظر إلى السقف. كان يرى الخشب. كان يرى القش. كان يرى الظلام. كان يرى نفسه. كان يرى رجلًا في الخمسينيات. كان يرى رجلًا أنهكته السنون. أنهكته الحرب. أنهكته السلطة. كان يرى رجلًا لم يعد يعرف لماذا قاتل. لماذا قتل. لماذا سجن. لماذا جوع. كان يرى رجلًا كان يظن أنه إله. والآن، كان يختبئ في بيت طيني. في قرية لا يعرف اسمها. على سرير خشبي. يخشى— أن يسمع صوت الباب. همس لنفسه:

— كيف وصلت إلى هنا؟
لم يجب. لم يكن يعرف.

المشهد الثالث: المعلومة

المكان: حصن خولان - غرفة العمليات
وليد كان مستيقظًا. لم ينم منذ يومين. كان أمام حاسوبه. كان يقرأ الرسائل. كان يتابع. كان يبحث. كان يعرف أن القيادات هربت. كان يعرف أنهم مختبئون. كان يعرف أنهم لن يبقوا مختبئين للأبد.

فجأة، وصلت رسالة. من مصدر داخل قرية "بني حشيش". كان المصدر رجلًا بسيطًا. كان قد رأى سيارة غريبة. كان قد رأى رجلًا غريبًا. كان قد سمع همسًا. لم يكن يعرف من هو. لكنه كان قد سمع اسمًا. اسمًا قاله الرجل لنفسه. عندما كان يظن أن لا أحد يسمع. "عبد الملك."

وليد قرأ الرسالة. ثم قرأها مرة أخرى. ثم قام. مشى. إلى غرفة أخرى. كان سلطان نائمًا. لم ينم منذ ثلاثة أيام. كان مستلقيًا على الأرض. كان متعبًا. لكن وليد أيقظه. قال:

—سلطان. وجدناه.

قال سلطان بصوت نعلان:

—من؟

قال وليد:

—عبد الملك.

سلطان فتح عينيه. جلس. نظر إلى وليد. قال:

—متأكد؟

قال وليد:

—متأكد. في قرية "بني حشيش". بيت طيني. في نهاية القرية.

سلطان وقف. كان جسده متعبًا. لكنه لم يعد يشعر بالتعب. قال:

—كم عددهم؟

قال وليد:

— لا نعرف. ربما وحده. ربما معه حراس. لكن المصدر
يقول إنه رأى رجلًا واحدًا فقط.
قال سلطان:

— لا نأخذ مخاطرة. سنذهب بعشرين رجلًا. مراد.
أحمد. صالح العمري. نخبة.
قال وليد:

— متى؟

قال سلطان:
— الآن.

المشهد الرابع: الطريق إلى بني حشيش
المكان: الطريق الترابي إلى قرية بني حشيش - شرق
صنعاء

الطريق كان ترابيًا. ضيقًا. مظلمًا. لا أضواء. لا سيارات.
فقط عتمة. وصمت. وصوت محركات الشاحنات
الصغيرة.

في الشاحنة الأولى، كان سلطان. كان يمسك ببندقيته.
لم يكن يريد أن يقتل. لكنه كان يعرف أن عبدالملك لن
يستسلم بسهولة. كان يعرف أن الرجل الذي حكم اليمن
لسنوات. الذي أرسل آلافًا إلى الموت. الذي سجن
آلافًا. الذي جوع ملايين. لن يفتح الباب ويقول: "أنا
هنا."

إلى جانبه، كان مراد. كان يمسك بجهاز تحديد المواقع.
كان يراقب. قال:

— على بعد كيلومترين.

سلطان قال للسائق:

— توقف هنا. نكمل مشيًا.

نزلوا. كانوا عشرين. كانوا يتقدمون في صمت. كانوا
يعرفون أن أي صوت قد ينبه الهدف. كانوا يعرفون أن
أي خطأ قد يعني فشل المهمة.

وصلوا إلى أطراف القرية. كانت القرية نائمة. بيوت
طينية. صغيرة. متباعدة. لا حركة. لا أصوات. فقط نباح
كلب بعيد.

قال سلطان لمراد:

—أين البيت؟

قال مراد:

—في النهاية. آخر بيت. على اليمين.

نظروا. كان البيت صغيرًا. منخفضًا. بابه خشبي. لا نوافذ. فقط فتحة صغيرة. لا حراس. لا سيارات. لا شيء.

قال سلطان:

—غريب. هل هو وحده حقًا؟

قال مراد:

—يبدو كذلك.

قال سلطان:

—لا تثق بالمظاهر. قد يكون هناك حراس في الداخل. أو في البيوت المجاورة.

قال مراد:

—ماذا نفعل؟

قال سلطان:

—نتفرق. أنا ومراد وأحمد ندخل من الباب. الباقيون يحيطون بالبيت. إذا سمعتم أي صوت، ادخلوا.

المشهد الخامس: المداهمة

المكان: داخل البيت الطيني - بني حشيش
عبدالملك كان نائمًا. أخيرًا. بعد ساعات من التقلب. كان قد أغلق عينيه. كان قد دخل في نوم عميق. لم يكن يحلم. لم يكن يرى شيئًا. فقط ظلام.
في الخارج، كان سلطان يتقدم. خطوة. خطوة. كان قلبه يدق. ليس خوفًا. بل توترًا. كان يعرف أن هذه اللحظة ستكون تاريخية. كان يعرف أن هذه اللحظة سيتذكرها اليمن. إلى الأبد.
وصل إلى الباب. كان خشبيًا. قديمًا. لا قفل. فقط مزلاج.

نظر إلى مراد. إلى أحمد. ثم رفع يده. إشارة.
دفع الباب.

فتح.

دخل.

الغرفة كانت صغيرة. مظلمة. لا ضوء. فقط ضوء القمر يتسلل من فتحة صغيرة في السقف. كان هناك سرير خشبي. على السرير، كان هناك رجل. كان نائمًا. كان يتنفس بعمق. كان يغطي نفسه ببطانية قديمة. كان وجهه هادئًا. لأول مرة منذ سنوات. كان وجهه هادئًا.

سلطان تقدم. وقف عند السرير. نظر إلى الرجل. كان يعرفه. كان يعرف وجهه. كان يعرف لحيته. كان يعرف أنفه. كان يعرف كل تفصيلة. كان قد رآه في الصور. في

الخطب. في الفيديوهات. لكنه لم يره من قبل. ليس
هكذا. ليس نائمًا. ليس ضعيفًا. ليس مجرد رجل.
رفع سلطان بندقيته. لم يكن يريد أن يقتل. لكنه كان
يريد أن يكون مستعدًا.

ثم قال بصوت هادئ. لكنه كان قاطعًا. كالسيف:
—عبدالمك الحوئي. استيقظ.
الرجل فتح عينيه.

كانت عيناه زائغتين. لم يفهم. لم يعرف أين هو. لم
يعرف من هؤلاء. ثم، بعد لحظة، عرف. رأى البنادق.
رأى الوجوه. رأى سلطان. عرف.
جلس على السرير. كان يتنفس بصعوبة. كان وجهه قد
تغير. لم يعد هادئًا. كان الخوف قد عاد. كان الخوف قد
ملأ عينيه.

قال بصوت مبحوح:
—من أنتم؟

قال سلطان:

—أنا الرائد سلطان القردعي. من الجيش اليمني. من
الجمهورية.

قال عبدالمك:

—الجمهورية؟

قال سلطان:

—نعم. الجمهورية. التي حاولت أن تقتلها. لكنها لم
تمت.

صمت.

ثم قال عبدالملك:

— ماذا تريدون؟

قال سلطان:

— نريدك. سنأخذك إلى صنعاء. ستحاكم.

قال عبدالملك:

— محاكمة؟

قال سلطان:

— نعم. محاكمة. كما حakمت أنت الآلاف. لكن

محاكمتنا ستكون عادلة. لن نعذبك. لن نقتلك.

سنسمعك. ثم سنحكم عليك.

قال عبدالملك:

— أنتم لا تفهمون. أنا لم أفعل شيئًا. أنا فقط...

قاطعهُ سلطان:

— أنت فقط ماذا؟ أنت فقط قتلت؟ أنت فقط

سجنت؟ أنت فقط جوعت؟ أنت فقط سرقت؟ أنت

فقط حولت اليمن إلى سجن كبير؟

صمت عبدالملك.

لم يرد.

قال سلطان:

— قم.

قام عبدالملك. كان جسده متعبًا. كان يمشي- ببطء. كان
يعرف أن النهاية قد جاءت. لم يكن هناك مخرج. لم
يكن هناك هروب. كان هناك فقط الاستسلام.
قال سلطان لمراد:
—قيدته. لا تؤذه.
قال مراد:
—نعم.
قيدوا يديه. كان الحبل ليس ضيقًا. كان فضفاضًا. قال
سلطان:
—لم نأت لنتعذب. جئنا لنحاكم.

المشهد السادس: الخروج

المكان :خارج البيت الطيني - بني حشيش
خرجوا. كان عبدالملك بينهم. كان يمشي. — كان ينظر إلى الأرض. لم يكن ينظر إلى السماء. لم يكن ينظر إلى القرية. لم يكن ينظر إلى أي شيء.
في الخارج، كان الرجال العشرون ينتظرون. عندما رأوا عبدالملك، سكتوا. لم يهتفوا. لم يصرخوا. فقط نظروا. نظروا إلى الرجل الذي كان يخيفهم. كان الآن بينهم. مقيدًا. ضعيفًا. مجرد رجل.
قال سلطان:

— لنعده إلى صنعاء.

وضعه في الشاحنة. كان يجلس في الخلف. بين مراد وأحمد. كان صامتًا. كان ينظر إلى الخارج. إلى القرية التي تبعد. إلى البيت الطيني الذي اختفى. إلى حياته التي انتهت.

في الطريق، قال عبدالملك بصوت منخفض:
— ماذا سيحدث لي؟

قال سلطان:

— ستحكم. أمام الشعب. أمام اليمن. أمام التاريخ.
قال عبدالملك:

— هل ستقتلوني؟

قال سلطان:

— لا نعرف. هذا قرار المحكمة. ليس قراري.

قال عبدالملك:

— لكنكم تعرفون أنني...

قاطعہ سلطان:

— أنت ماذا؟ أنت زعيم؟ أنت سيد؟ أنت إله؟

صمت.

ثم قال سلطان:

— أنت رجل. مجرد رجل. مثلي. مثلك. مثلك مثل كل
يمني. لكنك ظننت أنك أكثر. واليوم، عرفت أنك لست
أكثر.

المشهد السابع: الوصول

المكان: صنعاء – مدخل المدينة

عندما وصلوا إلى صنعاء، كان الفجر قد بدأ. كانت السماء تتلون بالأزرق. كانت الشمس على وشك أن تشرق.

في مدخل المدينة، كان هناك نقطة تفتيش. كان الثوار هناك. عندما رأوا الشاحنة، رفعوا أيديهم. ثم عرفوا. رأوا سلطان. رأوا مراد. رأوا أحمد. ثم رأوا الرجل الذي في الخلف.

صمتوا.

ثم قال أحدهم:

— هذا... هذا عبد الملك؟

قال سلطان:

— نعم.

لم يهتف أحد. لم يصرخ أحد. فقط نظروا. نظروا إلى الرجل الذي كان يحكمهم. كان الآن في شاحنة. مقيّدًا. صامتًا. هادئًا.

قال سلطان:

— سنأخذه إلى مبنى الأمن. هناك سيبقى حتى المحاكمة.

المشهد الثامن: في الزنزانة

المكان: مبنى الأمن والمخابرات – زنزانة انفرادية

الزنزانة كانت صغيرة. لكنها كانت نظيفة. كان فيها سرير. بطانية. وسادة. كان فيها نافذة صغيرة. كان فيها ضوء.

عبدالملك دخل. نظر حوله. لم يقل شيئاً. جلس على السرير. وضع رأسه بين يديه.

كان الحراس في الخارج. كانوا ينظرون إليه. لم يكونوا يصدقون. كانوا يرون الرجل الذي كان يخيف اليمن. كان الآن في زنزانه. كان الآن سجيناً. كان الآن لا شيء.

قال أحد الحراس:

— هل هو حقاً؟

قال الآخر:

— نعم. هو.

قال الأول:

— لا أصدق. كنت أظن أنه لا يظهر. كنت أظن أنه في كهف. في صعدة. في مران. لا يظهر أبداً.

قال الآخر:

— الظهور ليس اختياراً. الظهور يأتي عندما ينتهي كل شيء.

المشهد التاسع: الخبر

المكان: صنعاء — شوارع المدينة

الخبر انتشر كالنار في الهشيم.

"عبدالملك الحوثي اعتقل".

في الشوارع، كان الناس يتحدثون. كانوا لا يصدقون. كانوا يسألون. كانوا يتأكدون.

في سوق صنعاء، قال رجل:

— سمعت أنهم ألقوا القبض على عبدالملك.

قال آخر:

—عبدالملك الحوئي؟

قال الأول:

—نعم. في بني حشيش. كان مختبئًا في بيت طيني.

قال الثاني:

—لا أصدق.

قال الأول:

—صدق. الخبر من الثوار. من سلطان نفسه.

قال الثاني:

—إذن، انتهى كل شيء.

في حي حدة، كانت امرأة عجوز تباع الخبز. سمعت الخبر. توقفت. نظرت إلى السماء. قالت:

—الحمد لله. الحمد لله. لقد عشت لأرى هذا اليوم.

في ميدان السبعين، كان شباب يتجمعون. كانوا يهتفون. كانوا يرفعون الأعلام. كانوا يقولون:

—سقط الكهنوت. اعتقل عبدالملك. عاشت الجمهورية.

المشهد العاشر: عبدالعالم يسمع

المكان: غرفة في مبنى الأمن والمخابرات - صنعاء

عبدالعالم كان يجلس على كرسي. كان يشرب شايًا. كان قد استحم. كان قد غير ثيابه. كان قد بدأ يبدو مثل إنسان مرة أخرى.

دخل وليد. كان وجهه يلمع. قال:

—دكتور عبدالعالم. اعتقلوه.
عبدالعالم وضع كوب الشاي. نظر إلى وليد. قال:
—من؟
قال وليد:

—عبدالملك. عبدالملك الحوئي.
عبدالعالم صمت. لم يقل شيئًا. فقط نظر إلى النافذة.
كان يرى صنعاء. كان يرى الشوارع. كان يرى الناس. كان
يرى الأعلام.
ثم قال:
—الحمد لله.

قام. مشى إلى النافذة. نظر إلى الخارج. قال:
—لقد انتهى. حقًا انتهى.

المشهد الحادي عشر: كلمة أخيرة

المكان: مبنى الأمن والمخابرات — غرفة صغيرة
سلطان دخل على زيد. كان متعبًا. لكنه كان يبتسم. قال:
—دكتور عبدالعالم. اعتقلناه.
قال زيد:

—سمعت.

قال سلطان:

—كان مختبئًا في بيت طيني. في بني حشيش. كان نائمًا.
لم يكن معه أي حارس. كان وحده.
قال زيد:
—وحده؟

قال سلطان:

— نعم. وحده. لا حراس. لا سلاح. لا شيء. فقط رجل.
نائم. على سرير خشبي.
صمت زيد.

ثم قال:

— هذا هو الكهنوت. عندما ينتهي. يصبح مجرد رجل.
نائم. على سرير خشبي. في بيت طيني. لا أحد يحميه. لا
أحد يخاف منه. لا أحد يذكره.

قال سلطان:

— ماذا سنفعل به؟

قال زيد:

— سنحاكمه. كما وعدنا. كما وعدنا الناس. محاكمة
عادلة. أمام الشعب. أمام اليمن. أمام التاريخ.
قال سلطان:

— وماذا سيكون الحكم؟

قال زيد:

— لا نعرف. لكننا نعرف شيئًا واحدًا. لن نكون مثله. لن
نعذب. لن نقتل. سنحاكم. فقط.

المشهد الثالث: القاضي

المكان :قاعة المحكمة العليا – صنعاء

دخل القاضي.

كان رجلًا في الستينيات. كان يرتدي ثوبًا أسود. كان وجهه نحيفًا. كان نظره حادًا. كان اسمه القاضي عبدالغني المخلافي. كان قد رفض في الماضي أن يحكم بالإعدام على معارضين. كان قد رفض أن يوقع على أحكام جائزة. كان قد استقال من القضاء في عهد المليشيا. كان قد اعتزل. واختفى. ثم عاد. بعد النصر. ليس لأن أحدًا طلب منه. بل لأنه أراد. أراد أن يكون جزءًا من العدالة. أراد أن يغلق الدائرة.

لكنه لم يعد من المجلس الانتقالي. لم يكن هناك مجلس انتقالي. كان قد عاد من اختفائه في القرية التي كان يختبئ فيها. جاءه سلطان بنفسه. طرق بابه. قال:
—القاضي عبدالغني نريدك.

قال:

—لماذا؟

قال سلطان:

—لنحكم الكهنوت. لا نريد قاضيًا من المليشيا. لا نريد قاضيًا فاسدًا. نريد قاضيًا يعرف العدالة. نريدك أنت.

قال:

—وهل ستتركوني أحكم بالعدل؟ حتى لو كان الحكم لا يرضيكم؟

قال سلطان:

—نحن لم نقاتل لنحكم. قاتلنا لنعدل. وأنت العدل.
فقبل.

جلس على المنصة. نظر إلى القاعة. ثم نظر إلى
المتهمين. ثم نظر إلى الجمهور. ثم نظر إلى زيد. أوماً
برأسه. عبدالعالم أوماً برأسه.
ثم بدأ.

قال بصوت هادئ. لكنه كان قاطعًا. كالسيف:

—بسم الله الرحمن الرحيم. نبدأ اليوم محاكمة تاريخية.
محاكمة الذين قتلوا. الذين سجنوا. الذين جوعوا. الذين
سرقوا. الذين دنسوا. محاكمة الذين ظنوا أن اليمن
ملكهم. وأن الشعب عبيدهم. محاكمة الكهنوت.
صمت. ثم قال:

—المتهمون: عبدالملك الحوثي. عبدالكريم الحوثي.
عبدالحكيم الخيواني. علي حسين الحوثي. جعفر
المرهبي. التهم: القتل. التعذيب. الاعتقال التعسفي.
الفساد. الخيانة. الجرائم ضد الإنسانية.
نظر إلى المتهمين.

—كيف تدفعون عن أنفسكم؟
صمت. لم يرد أحد.

الفصل الثاني عشر: محاكمة الظلام

المشهد الرابع: عبدالملك

المكان: قاعة المحكمة العليا - صنعاء

عبدالملك رفع رأسه.

كان ذلك أول شيء فعله منذ أن دخل القاعة. لم يكن قد نظر إلى أحد. لا إلى القاضي. لا إلى الجمهور. لا إلى زيد. كان ينظر إلى الأرض. إلى قدميه. إلى القيود. إلى نفسه.

لكنه الآن رفع رأسه.

نظر إلى القاضي. كان وجهه هادئًا. لكن عينيه كانتا زائغتين. كانتا تعرفان أن هذه اللحظة هي النهاية. كانتا تعرفان أنه لا يوجد مخرج. كانتا تعرفان أن كل شيء انتهى.

قال بصوت منخفض. لكنه كان يصل إلى كل مكان:

—أنا لا أدفع.

صمت. في القاعة، لم يتحرك أحد. الجميع كان يسمع.

قال:

—أنا لا أدفع عن نفسي—. لا لأنني مذنب. بل لأنني لا أعترف بهذه المحكمة.

رفع صوته قليلًا:

—هذه محكمة غير شرعية. أنتم لستم قضاة. أنتم ثوار. أنتم خرجتم على الحاكم. أنتم أخذتم السلطة بالقوة. أنا لا أعترف بكم.

صمت.

ثم قال:

—أنا لم أفعل شيئًا. أنا كنت زعيمًا. كنت أقود. كنت أوجه. لكنني لم أقتل. لم أسجن. لم أعذب. الذين فعلوا ذلك هم غيري. هم الذين كانوا تحت يدي. هم الذين لم يفهموا. أنا كنت أريد الخير. كنت أريد أن أحكم بالعدل. لكن الناس لم يفهموني. نظر إلى القاعة. إلى الجمهور.

قال:

—أنا ضحية. ضحية التاريخ. ضحية الظروف. ضحية الذين خانوا. الذين تأمروا. الذين كرهوا. في القاعة، صمت.

لم يهتف أحد. لم يصرخ أحد. فقط نظر. نظر إلى الرجل الذي كان يبرر. كان يبرر القتل. كان يبرر السجن. كان يبرر التجويع. كان يبرر كل شيء. كان يقول إنه لم يفعل شيئًا. كان يقول إنه ضحية.

ثم قام زيد.

كان على كرسيه المتحرك. رفع يده. طلب الكلمة.

قال القاضي:

—تفضل.

المشهد الخامس: عبدالعالم يشهد

المكان: قاعة المحكمة العليا – صنعاء

عبدالعالم دفع كرسيه المتحرك ببطاء. تقدم نحو منصة الشهود. لم يكن يستطيع أن يقف. لكنه كان يستطيع أن يتكلم.

قال بصوت متعب. لكنه كان واضحًا. كان يصل إلى كل مكان:

— أنت تقول إنك ضحية. لكنك كنت الزعيم. كنت تعرف. كنت ترى. كنت تسمع. كنت توقع. كنت تأمر. أنت لست ضحية. أنت الجلاد. أنت الذي أرسلت الشباب إلى الموت. أنت الذي سجنتم الأطفال. أنت الذي جوعت النساء. أنت الذي سرقتم. أنت الذي دنس. أنت لست ضحية. أنت المتهم.

صمت.

ثم قال:

— أنا كنت في زنانتك. أنا كنت في سجنك. أنا رأيت. أنا سمعت. أنا عشت. أنا أعرف. أنا شاهد.

نظر إلى عبدالملك مباشرة:

— أنت لا تعرفني. لكنني أعرفك. أنا كنت أكتب عنك. قبل الحرب. قبل أن تصبح زعيمًا. كنت أكتب عن الإمامة. عن الكهنوت. عن السلالة. كنت أعرف أنكم قادمون. كنت أعرف أنكم ستحكمون. كنت أعرف أنكم ستقتلون. كنت أعرف أنكم ستسجنون. كنت أعرف

أنكم ستجوعون. لكنني لم أكن أعرف كم ستكونون قساة. لم أكن أعرف كم ستكونون وحوشًا. لم أكن أعرف كم ستكونون كهنوتًا. صمت.

ثم قال:

— لكنني الآن أعرف. أنا رأيت. أنا رأيت زنازينك. أنا رأيت أجهزة التعذيب. أنا رأيت الدماء على الجدران. أنا رأيت الأطفال الذين اعتقلوا. أنا رأيت النساء اللواتي هتكت أستارهن. أنا رأيت كل شيء. أنا شاهد. أنا لن أترك تبرر. لن أترك تكذب. لن أترك تهرب. جلس.

عبد الملك نظر إليه. لم يرد. لم يستطع أن يرد. كان يعرف أن عبد العالم كان يقول الحقيقة. كان يعرف أن كل كلمة قالها كانت صحيحة. كان يعرف أنه لا يستطيع أن ينكر. لا يستطيع أن يبرر. لا يستطيع أن يهرب.

المشهد السادس: الشاهد الأول

المكان: قاعة المحكمة العليا — صنعاء

قال القاضي:

— نستدعي الشاهد الأول.

دخل رجل. كان في الخمسينيات. كان يمشي - ببطء. كان يتوكأ على عصا. كان وجهه نحيفًا. كان قد فقد عينه اليسرى. كان قد فقد ابنه. كان قد فقد كل شيء.

جلس على كرسي الشهود. نظر إلى القاضي. ثم نظر إلى
عبد الملك. ثم نظر إلى الجمهور.
قال القاضي:
— ما اسمك؟
قال:

— أحمد. أحمد الصبري. كنت أستاذًا في الجامعة.
اعتقلت قبل خمس سنوات. بتهمة "الخيانة". لم تكن
هناك محاكمة. لم تكن هناك أدلة. فقط أمر. فقط
توقيع. فقط كلمة. "خيانة".
صمت.

ثم قال:
— كنت في زنانة. كنت أسمع صراخ الآخرين. كنت
أسمع أصوات التعذيب. كنت أسمع أسماء الذين
يموتون. كانوا يموتون. كل يوم. كانوا يموتون.
صمت.

ثم قال:
— أنا أعرف من أعطى الأوامر. أنا أعرف من وقع. أنا
أعرف من قال: "لا ترحمهم". أنا أعرف.
أشار إلى عبد الملك.
قال:

— هو. عبد الملك. هو. هو الذي أمر. هو الذي وقع. هو
الذي قال: "اقتلوهم". هو.
صمت.

ثم قال:

— أنا فقدت عيني. فقدت ابني. فقدت خمس سنوات من عمري. لكنني لم أفقد كرامتي. واليوم. أنا هنا. لأشهد. لأقول. لأحكي. لأحاسب. جلس.

المشهد السابع: الشاهدة الثانية

المكان: قاعة المحكمة العليا — صنعاء

قال القاضي:

— نستدعي الشاهدة الثانية.

دخلت امرأة. كانت في الأربعينيات. كانت ترتدي عباءة سوداء. كانت تمشي ببطء. كانت عيناها محمرتين. كانت قد بكت كثيرًا. كانت قد فقدت زوجها. جلس على كرسي الشهود. نظرت إلى القاضي. ثم نظرت إلى عبد الملك. ثم نظرت إلى الجمهور.

قال القاضي:

— ما اسمك؟

قالت:

— فاطمة. فاطمة العزي. من تعز. زوجي كان ضابطًا في الجيش. اعتقل قبل أربع سنوات. بتهمة "الخيانة". لم تكن هناك محاكمة. لم تكن هناك أدلة. فقط أمر. فقط توقيع. فقط كلمة. "خيانة". صمت.

ثم قالت:

—أخذوا زوجي. لم يرجع. لم يعود. قالوا إنه مات. قالوا
إنه انتحر. لكنني أعرف. أنا أعرف أنهم قتلوه. أنا أعرف
أنهم عذبوه حتى الموت. أنا أعرف.
صمت.

ثم قالت:

—ومن أمر؟ من وقع؟ من قال؟ هو. عبد الملك. هو.
أشارت إليه.

قالت:

—أنا لم أر زوجي منذ أربع سنوات. أنا لم أسمع صوته.
أنا لم ألمس يده. أطفالي لم يروا أباهم. أطفالي لم يعرفوا
أباهم. أطفالي سألوني: "أين أبي؟" قلت لهم: "أبوكم في
الجنة." لكنني أعرف. أنا أعرف أنه ليس في الجنة. أنا
أعرف أنه في مقبرة جماعية. أنا أعرف أنه تحت الأرض.
أنا أعرف أنه لم يدفن. أنا أعرف.
بكت.

ثم قالت:

—واليوم. أنا هنا. لأشهد. لأقول. لأحكي. لأحاسب.

المشهد الثامن: الشاهد الثالث

المكان: قاعة المحكمة العليا — صنعاء

قال القاضي:

—نستدعي الشاهد الثالث.

دخل شاب. كان في العشرينيات. كان نحيفًا. كان يمشي-
ببطء. كان وجهه شاحبًا. كان قد اعتقل في سن الخامسة
عشرة. كان قد تعذب. كان قد رأى أصدقاءه يموتون.
جلس على كرسي الشهود. نظر إلى القاضي. ثم نظر إلى
عبد الملك. ثم نظر إلى الجمهور.
قال القاضي:
— ما اسمك؟
قال:

— يوسف. يوسف الحداد. من صنعاء. اعتقلت في سن
الخامسة عشرة. بتهمة "التخابر". لم تكن هناك
محاكمة. لم تكن هناك أدلة. فقط أمر. فقط توقيع.
فقط كلمة. "تخابر".
صمت.
ثم قال:

— كنت في زنانة. كنت أسمع. كنت أرى. كانوا يأتون
بالرجال. كانوا يعذبونهم. كانوا يقتلونهم. كانوا يرمون
جثثهم في القبو. كانوا يقولون: "هذا بأمر من السيد".
السيد كان عبد الملك. السيد كان هو. هو الذي أمر. هو
الذي وقع. هو الذي قال: "اقتلوهم".
صمت.

ثم قال:
— أنا كنت في زنانة. أنا كنت أسمع. أنا كنت أرى. أنا
كنت أعرف. أنا كنت أعرف أنني قد أموت. أنا كنت

أعرف أنني قد لا أخرج. لكنني خرجت. خرجت لأشهد.
خرجت لأقول. خرجت لأحكي. خرجت لأحاسب.
جلس.

المشهد التاسع: الوثائق

المكان: قاعة المحكمة العليا – صنعاء

قدمت الوثائق.

كانت مئات. كانت آلاف. كانت ملفات. كانت تقارير.
كانت أوامر. كانت توقيعات. كانت أسماء. كانت تواريخ.
كانت جرائم.

قرأ المدعي العام بعضًا منها. كان المدعي العام ضابطًا
من الضباط الأحرار. كان اسمه الرائد طارق. كان قد قاتل
في كل المعارك. كان قد رأى كل شيء. كان قد عرف كل
شيء.
قال:

— هذه وثيقة. بتاريخ ٢٠١٨. أمر من عبدالملك
الحوثي. باعتقال ٤٧ شخصًا. في صنعاء. بتهمة
"الخيانة". لم تكن هناك محاكمة. لم تكن هناك أدلة.
فقط أمر. فقط توقيع. فقط كلمة. "خيانة". ذهب ٤٧
شخصًا إلى السجن. لم يخرج منهم أحد.
قرأ:

— هذه وثيقة. بتاريخ ٢٠١٩. أمر من عبدالحكيم
الخيواني. بتعذيب ٢٣ شخصًا. حتى الموت. في سجن
"الروضة". لم تكن هناك محاكمة. لم تكن هناك أدلة.

فقط أمر. فقط توقيع. فقط كلمة. "تعذيب حتى الموت". مات ٢٣ شخصًا. لم يعرف أحد لماذا. قرأ:

— هذه وثيقة. بتاريخ ٢٠٢٠. أمر من علي حسين الحوئي. بإنشاء "جهاز الظل". لمراقبة هواتف المواطنين. واعتقال من يكتب. ومن يتكلم. ومن يفكر. لم تكن هناك محاكمة. لم تكن هناك أدلة. فقط أمر. فقط توقيع. فقط كلمة. "جهاز الظل". اعتقل الآلاف. لم يخرج منهم إلا القليل. قرأ:

— هذه وثيقة. بتاريخ ٢٠٢١. أمر من عبدالكريم الحوئي. بمصادرة أراضي ٣,٠٠٠ مواطن. في صنعاء. وضواحيها. بحجة أنها "أوقاف". لم تكن هناك محاكمة. لم تكن هناك أدلة. فقط أمر. فقط توقيع. فقط كلمة. "أوقاف". صودرت ٣,٠٠٠ أرض. لم يرجع منها شيء. قرأ:

— هذه وثيقة. بتاريخ ٢٠٢٢. أمر من جعفر المرهبي. بإنشاء "أمن الثورة". لتصفية الأجنحة الأخرى. وقتل من يختلف. لم تكن هناك محاكمة. لم تكن هناك أدلة. فقط أمر. فقط توقيع. فقط كلمة. "تصفية". قتل المئات. لم يحاسب أحد.

المشهد العاشر: الاعتراف

المكان: قاعة المحكمة العليا — صنعاء

بعد الوثائق، سكت المتهمون.
ثم قام عبدالحكيم الخيواني.
كان وجهه شاحبًا. كان جسده يرتجف. كان يعرف أن
النهاية قادمة. كان يعرف أن لا مخرج. قال بصوت
منخفض:
—أنا أعترف.
صمتت القاعة.
قال:

—أنا أعترف. أنا وقعت. أنا أمرت. أنا عذبت. أنا
سجنت. أنا قتلت. لكنني لم أكن الوحيد. كان معي
آخرون. كان معي علي حسين. كان معي عبدالكريم. كان
معني عبدالملك. نحن جميعًا كنا جزءًا من الآلة. نحن
جميعًا كنا مجرمين.
نظر إلى عبدالملك.
قال:

— لكنه هو. هو الذي أمر. هو الذي وقع. هو الذي قال:
"افعلوا". هو الذي قال: "لا ترحموا". هو الذي قال:
"اقتلوا". هو الزعيم. هو المسؤول. هو الأول. ونحن كنا
فقط أتباعًا. كنا فقط أدوات.
صمت.

ثم قال:
—أطلب من المحكمة أن تنظر. أن تنظر إلى كل شيء.
أن تنظر إلى كل الجرائم. أن تنظر إلى كل الأوامر. وأن

تحكم. بالعدل. لأنني أعرف أنني مذنب. لكنه. هو أكثر
ذنبا. هو الأول. هو الأصل.
جلس.

عبدالملك نظر إليه. لم يقل شيئا. كان يعرف أن
الخيواني كان يقول الحقيقة. كان يعرف أنه لا يستطيع
أن ينكر. لا يستطيع أن يبرر. لا يستطيع أن يهرب.

المشهد الحادي عشر: الحكم

المكان: قاعة المحكمة العليا – صنعاء

القاضي عبدالغني المخلافي أغلق الملف الذي أمامه. كان الملف سميًا. كان يحتوي على كل شيء. على سنوات من الجرائم. على آلاف الأسماء. على مئات الأوامر. على دماء لا تجف.

رفع رأسه. نظر إلى القاعة. كانت القاعة قد سكنت. لم يبقَ فيها صوت. لا همس. لا حركة. فقط صمت. صمت من يعرف أن اللحظة قد حانت.

نظر إلى المتهمين. كانوا خمسة. جالسين في مقاعد الاتهام. عبدالملك. عبدالكريم. الخيواني. علي حسين. المرهبي. كانوا ينظرون إلى الأرض. كلهم. إلا عبدالملك. كان ينظر إلى القاضي. مباشرة. كأنه يريد أن يعرف. كأنه يريد أن يسمع.

نظر القاضي إلى الجمهور. إلى زيد. إلى نادية. إلى سارة. إلى وليد. إلى سلطان. إلى الشيخ صالح. إلى الشيخ أبو بلال. إلى مراد. إلى أحمد. إلى كل من كان هناك. إلى كل من انتظر هذه اللحظة.

ثم قال. كان صوته هادئًا. لكنه كان يصل إلى كل مكان: — بعد الاستماع إلى الشهود. بعد الاطلاع على الوثائق. بعد سماع الاعترافات. بعد كل شيء. قررت المحكمة. صمت.

ثم قال:

—عبدالملك الحوئي.

نظر إلى عبدالملك.

—أنت مذنب. بكل التهم. القتل. التعذيب. الاعتقال

التعسفي. الفساد. الخيانة. الجرائم ضد الإنسانية.

صمت.

ثم قال:

—حكمك: الإعدام.

في القاعة، لم يتحرك أحد. لم يهتف أحد. فقط صمت.

صمت ثقيل. صمت من يعرف أن العدالة تحققت.

عبدالملك لم يتحرك. لم يقل شيئاً. فقط أغلق عينيه.

كأنه كان يعرف. كأنه كان ينتظر. كأنه كان يستعد.

ثم قال القاضي:

—عبدالكريم الحوئي.

نظر إلى عبدالكريم.

—أنت مذنب. بكل التهم. القتل. التعذيب. الاعتقال

التعسفي. الفساد. الخيانة. الجرائم ضد الإنسانية.

صمت.

ثم قال:

—حكمك: الإعدام.

عبدالكريم لم يتحرك. لم يقل شيئاً. فقط نظر إلى

الأرض. كان يعرف. كان ينتظر. كان يستعد.

ثم قال القاضي:

—عبدالحكيم الخيواني.

نظر إلى الخيواني.

—أنت مذنب. بكل التهم. القتل. التعذيب. الاعتقال
التعسفي. الفساد. الخيانة. الجرائم ضد الإنسانية.
صمت.

ثم قال:

—لكنك اعترفت. ساعدت العدالة. كشفت الجرائم.
لذلك.

صمت.

ثم قال:

—حكمك: السجن المؤبد.

الخيواني رفع رأسه. نظر إلى القاضي. كانت عيناه
تلمعان. لم يكن يعرف إن كان يجب أن يفرح. أو أن
يحزن. لكنه كان يعرف أن حياته قد انتهت. حتى لو كان
حيًا. سيبقى في زنزانة. إلى الأبد.

ثم قال القاضي:

—علي حسين الحوئي.

نظر إلى علي حسين.

—أنت مذنب. بكل التهم. القتل. التعذيب. الاعتقال
التعسفي. الفساد. الخيانة. الجرائم ضد الإنسانية.
صمت.

ثم قال:

—حكمك: الإعدام.

علي حسين لم يتحرك. لم يقل شيئًا. فقط نظر إلى الأرض. كان يعرف. كان ينتظر. كان يستعد.

ثم قال القاضي:

— جعفر المرهبي.

نظر إلى المرهبي.

— أنت مذنب. بكل التهم. القتل. التعذيب. الاعتقال التعسفي. الفساد. الخيانة. الجرائم ضد الإنسانية. صمت.

ثم قال:

— حكمك: السجن المؤبد.

المرهبي لم يتحرك. لم يقل شيئًا. فقط أغلق عينيه. كأنه كان يعرف. كأنه كان ينتظر. كأنه كان يستعد.

ثم قال القاضي:

— هذا هو الحكم. وهو نهائي. سينفذ. في الساحة العامة. أمام الشعب. أمام اليمن. أمام التاريخ. حتى يعرف الجميع. أن العدالة موجودة. وأن اليمن ليس كهنوتًا. اليمن جمهورية. وأن الجمهورية لا ترحم من قتل. ولا تسجن من تكلم. ولا تجوع من عاش. الجمهورية تحاكم. فقط. وتحكم. بالعدل. وقف.

نظر إلى القاعة. إلى الجمهور. إلى زيد. إلى سلطان. إلى نادية. إلى سارة. إلى وليد. إلى كل من كان هناك. إلى كل من انتظر هذه اللحظة.

ثم قال:
— رفعت الجلسة.

المشهد الثاني عشر: رد الفعل

المكان :قاعة المحكمة العليا – صنعاء

القاضي خرج من القاعة. الباب الخشبي الكبير أغلق خلفه بصوت مكتوم. لثانية واحدة، سكت كل شيء. كأن القاعة نفسها كانت تحبس أنفاسها. كأن الجدران كانت تنتظر. كأن التاريخ كان ينتظر. ثم انفجرت.

لم يكن انفجارًا من غضب. كان انفجارًا من ارتياح. من سنوات من القهر. من آلاف الليالي التي نام فيها الناس على وسادة من خوف. من ملايين الدموع التي لم تجد من يمسحها. كان انفجارًا من فرح. فرح مؤجل. فرح مدفون. فرح كان ينتظر هذه اللحظة. هتافات. تكبير. زغاريد. بكاء. صوت واحد. صوت واحد كبير. صوت شعب.

في الصف الأول، كان عبدالعالم العنسي. كان جالسًا على كرسيه المتحرك. كان يمسك بذراعي الكرسي بيديه. كان جسده يرتجف. لم يكن يرتجف من البرد. كان يرتجف من الفرح. كان يرتجف من الألم. كان يرتجف من كل شيء.

دموعه كانت تنزل. لم يكن يحاول أن يمسحها. لم يكن يستطيع. كانت تنزل على وجهه. على جراحه. على

تجاعيده. على سنواته. على زنازينه. على كتاباته. على كل شيء.

همس. لم يكن يعرف أنه يهمس بصوت عالٍ. لم يكن يعرف أنه يسمع نفسه: — انتهى. حقًا انتهى.

نادية كانت جالسة بجانبه. كانت تمسك بيده. كانت تبكي. لكنها كانت تبتسم. كانت تبتسم وتقول: — فعلناها يا زيد. فعلناها.

عبدالعالم نظر إليها. نظر إلى سارة. إلى وليد. إلى سلطان. إلى الشيخ صالح. إلى الشيخ أبو بلال. إلى مراد. إلى أحمد. إلى كل من كان هناك. إلى كل من ضحى. إلى كل من مات. قال:

— فعلناها معًا. كلنا.

في الصف الثاني، كان هناك رجل عجوز. كان في السبعينيات. كان قد اعتقل قبل عشر سنوات. كان قد تعذب. كان قد فقد ابنه. كان قد فقد كل شيء. لكنه كان هناك. كان جالسًا. كان يبكي. كان يقول بصوت مرتجف: — لقد عشت لأرى هذا اليوم. لقد عشت لأرى العدالة. إلى جانبه، كانت امرأة. كانت في الخمسينيات. كانت قد فقدت زوجها. كانت قد فقدت ابنها. كانت قد فقدت كل شيء. لكنها كانت هناك. كانت ترفع يديها إلى السماء. كانت تقول:

—الحمد لله. الحمد لله. الحمد لله.

في الصف الثالث، كان هناك شاب. كان في العشرينيات. كان قد اعتقل في سن الخامسة عشرة. كان قد تعذب. كان قد رأى أصدقاءه يموتون. لكنه كان هناك. كان يقف. كان يرفع قبضته. كان يهتف:

—عاشت الجمهورية! عاشت العدالة! عاشت اليمن!
في الزاوية، كان هناك صحفي. كان يحمل كاميرا. كان يصور. كان ينقل. كان يبث. كان يريد أن يرى العالم. أن يرى أن اليمن ليست كهنوتًا. أن يرى أن اليمن جمهورية. أن يرى أن العدالة موجودة.
قال في الكاميرا:

—هذا هو اليوم. هذا هو اليوم الذي انتظرتة اليمن.
اليوم، حوكم الكهنوت. اليوم، انتصرت العدالة.
في الخارج، كان الخبر قد انتشر.
في شوارع صنعاء، كان الناس يهتفون. كانوا يرقصون.
كانوا يرفعون الأعلام. كانوا يقولون:
—انتهى الكهنوت. انتهى الظلم. عاشت الجمهورية.
في ميدان السبعين، كان الشباب يتجمعون. كانوا يرفعون لافتات. كانوا يقولون:

—العدالة انتصرت. اليمن عادت. الجمهورية عاشت.
في حي حدة، كانت امرأة عجوز تبيع الخبز. سمعت الخبر. توقفت. نظرت إلى السماء. قالت:
—الحمد لله. الحمد لله. لقد عشت لأرى هذا اليوم.

في شارع الزيري، كان رجل يبيع الفول. سمع الخبر.
توقف. نظر إلى الناس. قال:

— سمعتم؟ حكموا عليهم. الإعدام. الإعدام.
لعبد الملك. الإعدام لعبد الكريم. الإعدام لعلي حسين.
المؤبد للخيواني. المؤبد للمرهبي.
قال أحد الزبائن:

— هل هذا حقيقي؟

قال:

— حقيقي. حقيقي. لقد سمعت. من الثوار. من سلطان
نفسه.

قال الزبون:

— إذن، انتهى كل شيء.

قال:

— نعم. انتهى.

في حصن خولان، كانت الغرفة فارغة. لم يكن هناك
أحد. فقط الشاشات. كانت تعرض الأخبار. كانت تعرض
الاحتفالات. كانت تعرض صنعاء.

على الشاشة، كان عبد العالم يتكلم. كان يخطب. كان
يقول:

— عاشت الجمهورية. عاش اليمن. عاشت الحرية.

على الشاشة، كان الميدان يهتف. كان يهتف:

— عاشت الجمهورية! عاشت الجمهورية!

على الشاشة، كانت الأعلام ترفرف. كانت ترفرف فوق صنعاء. فوق اليمن. فوق التاريخ.

في زنزانة انفرادية، كان عبدالملك الحوثي يجلس على سرير حديدي. كان وحده. كان يسمع الهتافات من بعيد. كان يسمع التكبير. كان يسمع الزغاريد. كان يعرف أن الناس يحتفلون. كان يعرف أن الناس يفرحون. كان يعرف أن الناس يقولون:

—انتهى الكهنوت.

نظر إلى النافذة الصغيرة. كان يرى السماء. كانت زرقاء. كانت صافية. لم يكن يرى شيئاً آخر. فقط السماء. همس لنفسه — :انتهى.

لم يقل شيئاً آخر. لم يكن يحتاج. كان يعرف. كان يعرف أن كل شيء انتهى.

في زنزانة أخرى، كان عبدالكريم الحوثي يجلس على الأرض. كان يبكي. لم يكن يبكي حزنًا على نفسه. كان يبكي حزنًا على ما فات. على ما فعله. على ما لم يفعله. على كل شيء.

في زنزانة ثالثة، كان عبدالحكيم الخيواني يجلس على السرير. كان ينظر إلى الجدار. كان يعرف أنه لن يخرج. كان يعرف أنه سيبقى هنا. إلى الأبد. لكنه كان يعرف أيضًا أنه اعترف. أنه ساعد العدالة. أنه كشف الجرائم. ربما هذا سيكون شيئًا. ربما هذا سيكون راحة. ربما.

في زنانة رابعة، كان علي حسين الحوئي يجلس على الأرض. كان ينظر إلى يديه. كان يتذكر. كان يتذكر كل شيء. كل أمر. كل توقيع. كل جريمة. كان يعرف أنه سيموت. كان يعرف أنه يستحق. كان يعرف أن العدالة تحققت.

في زنانة خامسة، كان جعفر المرهبي يجلس على السرير. كان ينظر إلى السقف. كان يعرف أنه لن يخرج. كان يعرف أنه سيبقى هنا. لكنه كان يعرف أيضًا أن الحياة ليست نهاية. ربما في زنانتته، سيجد شيئًا. ربما سلامًا. ربما.

في الخارج، كانت الشمس تغرب. كانت السماء تتلون بالأحمر. كان اليوم ينتهي. لكن اليمن كانت تبدأ. كانت تبدأ من جديد. كانت تبدأ بعد أن انتهى الكهنوت. كانت تبدأ بعد أن تحققت العدالة.

في ميدان السبعين، كان الناس لا يزالون هناك. كانوا يهتفون. كانوا يرقصون. كانوا يرفعون الأعلام. كانوا يقولون:

— عاشت الجمهورية. عاشت العدالة. عاشت اليمن.
في المنصة، كان عبدالعالم لا يزال هناك. كان ينظر إلى الميدان. إلى الناس. إلى الأعلام. إلى الأمل.
قال بصوت هادئ. لكنه كان يصل إلى كل مكان:

— هذا هو اليوم. هذا هو اليوم الذي انتظرناه. اليوم،
انتهى الكهنوت. اليوم، بدأت الجمهورية. اليوم، بدأ
اليمن.

الفصل الثالث عشر: بناء الجمهورية الثانية

المشهد الأول: الغرفة التي لا تنام

المكان: دار الرئاسة - غرفة الاجتماعات - صنعاء
الغرفة كانت واسعة. لكنها لم تكن فخمة. لم تكن مثل
غرف دار الرئاسة القديمة. لم يكن فيها سجاد إيراني. لم
تكن فيها ثريات ذهبية. لم تكن فيها كراسي جلدية
فاخرة. كانت مجرد غرفة. طاولة طويلة. كراسي خشبية.
خريطة اليمن على الجدار. علم الجمهورية في الزاوية.
على الطاولة، كانت هناك أوراق. كثيرة. ملفات. تقارير.
خرائط. قوائم. كل شيء كان يحتاج إلى قرار. كل شيء
كان يحتاج إلى بناء.

حول الطاولة، جلس القادة. سلطان القردعي. الشيخ
صالح الجدعاني. الشيخ أبو بلال. الرائد طارق. مراد.
أحمد. نادية. وليد. سارة. وبعض الضباط الأحرار.
وبعض شيوخ القبائل. وبعض ممثلي المحافظات.
في صدر الطاولة، كان كرسي فارغ. لم يكن فارغاً لأنه لا
أحد يستحقه. كان فارغاً لأنه كان ينتظر أحداً.
ثم دخل.

كان عبدالعالم العنسي.. كان يتوكل على عصاه. كان يمشي.. ببطء. كان جسده لا يزال متعبًا. لكنه كان يمشي.. كان يمشي بنفسه. كان يمشي نحو الكرسي. جلس. نظر إلى الحاضرين. ثم قال:
— نبدأ.

المشهد الثاني: التحدي

الزمان: الساعة الثامنة والرابع صباحًا
المكان: دار الرئاسة – غرفة الاجتماعات
قال سلطان:

— دكتور عبدالعالم. نحن أسقطنا الكهنوت. لكننا لم نبني الدولة بعد. الدولة انهارت. المؤسسات دمرت. الاقتصاد منهيار. الأمن مفكك. الناس يريدون شيئًا. يريدون حياة. يريدون عملاً. يريدون طعامًا. يريدون دواءً. يريدون مدارس. يريدون مستشفيات. يريدون كهرباء. يريدون ماءً. يريدون كل شيء.
قال زيد:

— نعم. هذا هو التحدي. بناء الدولة أصعب من هدمها. لكننا لا نملك خيارًا آخر. لقد وعدنا الناس. وعدناهم بالحرية. وعدناهم بالعدالة. وعدناهم بالحياة. يجب أن نفي بالوعد.
قال الشيخ صالح:
— من أين نبدأ؟
قال زيد:

—من الأمن. ثم الاقتصاد. ثم المؤسسات.

قالت نادية:

—الأمن ليس سهلاً. المليشيا انهارت. لكن هناك خلايا نائمة. هناك مسلحون لم يسلموا. هناك مشرفون هربوا. هناك من يريد أن يعود.

قال سلطان:

—سنظهرهم. لن نتركهم. لكن سنفعل ذلك بالقانون. ليس بالانتقام. نحن لسنا مثلهم.

قال الشيخ أبو بلال:

—الاقتصاد ليس سهلاً أيضاً. الميناء تضرر. الحقول تضررت. المصانع توقفت. البنوك فارغة. الناس لا يملكون شيئاً.

قال زيد:

—النفط. النفط هو الحل. النفط الذي كان يُسرق. اليوم، سيعود إلى الشعب. سنستخدمه لبناء المدارس. المستشفيات. الطرقات. الكهرباء. الماء. كل شيء.

قال وليد:

—لكن النفط يحتاج إلى وقت. يحتاج إلى استثمار. يحتاج إلى خبراء. يحتاج إلى أمن.

قال زيد:

—نعم. لكننا سنبدأ. اليوم. ليس غداً. سنشكل لجنة. لجنة للاقتصاد. لجنة للأمن. لجنة للعدالة. لجنة

للتعليم. لجنة للصحة. لجنة للإعمار. كل شيء. سنبدأ.
من الصفر.

المشهد الثالث: الأمن

الزمان: الساعة التاسعة صباحًا
المكان: دار الرئاسة – غرفة الاجتماعات
قال سلطان:

—الأمن هو الأولوية. يجب أن نعيد هيكلة الجيش.
يجب أن نعيد هيكلة الشرطة. يجب أن نعيد هيكلة
الأمن. لكن ليس مثل الماضي. ليس جيشًا لمليشيا. ليس
شرطة لكهنوت. جيش للجمهورية. شرطة للمواطن.
قال الرائد طارق:

—من سيقود؟ من سيكون وزير الدفاع؟ من سيكون
وزير الداخلية؟
قال سلطان:

—لا وزراء بعد. نحن في مرحلة انتقالية. سنشكل
مجلسًا عسكريًا. مجلسًا أمنيًا. من الضباط الأحرار. من
الثوار. من الذين قاتلوا. من الذين ضحوا.
قال الشيخ صالح:

—وماذا عن المليشيا؟ ماذا عن الذين سلموا؟ ماذا عن
الذين عادوا إلى بيوتهم؟
قال سلطان:

—من سلم، لن نؤذيه. من عاد إلى بيته، لن نطارده. من
لم يتلطح بالدماء، لن نحاكمه. لكن من قتل، من عذب،

من سجن، من سرق، سيحاكم. لا نريد انتقامًا. نريد
عدالة.

قال زيد:

— هذا هو الفرق بيننا وبينهم. هم انتقموا. نحن نعدل.
هم قتلوا. نحن نحاكم. هم سجنوا. نحن نطلق. هذا هو
الفرق.

المشهد الرابع: الاقتصاد

المكان: دار الرئاسة — غرفة الاجتماعات

قالت نادية:

— الاقتصاد ليس سهلاً. البنوك فارغة. العملة منهارة.
الأسعار مرتفعة. الناس لا يملكون شيئًا. كيف سنعيد
الحياة؟

قال زيد:

— النفط. النفط. النفط.

قال وليد:

— لكن النفط يحتاج إلى وقت.

قال زيد:

— نعم. لكننا سنبدأ. اليوم. سنشكل شركة وطنية
للنفط. شركة مملوكة للشعب. لا لمليشيا. لا لكهنوت.
لا لسلالة. للشعب. كل يماني سيكون شريكًا. كل يماني
سيستفيد.

قال الشيخ أبو بلال:

— وماذا عن الميناء؟ ماذا عن الحديد؟

قال زيد:

—الميناء هو شريان الحياة. سنعيد بناءه. سنعيد تشغيله. سنفتحه للعالم. سنستقبل المساعدات. سنصدر النفط. سنستورد الغذاء. الدواء. كل شيء.
قال سلطان:

—هذا يحتاج إلى أمن. يحتاج إلى استقرار. يحتاج إلى وقت.
قال زيد:

—نعم. لكننا سنبدأ. من اليوم. من هذه اللحظة. لن ننتظر.

المشهد الخامس: العدالة

المكان: دار الرئاسة – غرفة الاجتماعات
قالت نادية:

—العدالة ليست فقط المحاكمة. العدالة هي أن يعود الحق إلى أصحابه. أن تعود الأراضي المسروقة. أن تعود الأموال المنهوبة. أن يعود المهجرون. أن يعود المعتقلون. أن يعود كل شيء.

قال زيد:

—نعم. سنشكل لجنة للعدالة. لجنة لاستعادة الأموال. لجنة لاستعادة الأراضي. لجنة لتعويض الضحايا. لجنة لإعادة المهجرين. لجنة لإطلاق المعتقلين. كل شيء. سنبدأ. من الصفر.
قال سلطان:

—الأموال المنهوبة. أين هي؟

قال وليد:

—بعضها في البنوك الخارجية. بعضها في العقارات.

بعضها في الشركات. بعضها في الحسابات الشخصية.

نحن نعرف. لدينا الوثائق. لدينا الأسماء. لدينا كل شيء.

قال زيد:

—إذن، سنستعيدها. لا نريد أن نترك شيئاً. كل قرش.

كل أرض. كل حق. سيعود إلى أصحابه.

المشهد السادس: التعليم

المكان: دار الرئاسة - غرفة الاجتماعات

قالت سارة:

—التعليم. التعليم هو الأساس. الأطفال لم يذهبوا إلى

المدرسة منذ سنوات. المدارس دمرت. المناهج حُرقت.

المعلمون هاجروا. كيف سنعيد التعليم؟

قال زيد:

—سنعيد بناء المدارس. سنعيد المناهج. سنعيد

المعلمين. سنعيد كل شيء. لكن ليس مثل الماضي. ليس

مناهج كهنوت. ليس مناهج سلاله. مناهج جمهورية.

مناهج وطنية. مناهج تعلم الأطفال أن اليمن جمهورية.

أن اليمن ليست سلاله. أن اليمن ليست كهنوتاً. أن

اليمن لكل اليمنيين.

قالت سارة:

— وهذا يحتاج إلى وقت. يحتاج إلى مال. يحتاج إلى خبراء.

قال زيد:

— نعم. لكننا سنبدأ. من اليوم. من هذه اللحظة. لن ننتظر.

المشهد السابع: الصحة

المكان: دار الرئاسة — غرفة الاجتماعات

قال الشيخ أبو بلال:

— الصحة. المستشفيات دمرت. الأطباء هاجروا. الدواء مفقود. الناس يموتون. ليس من الحرب. من المرض. من الجوع. من الإهمال.

قال زيد:

— سنعيد بناء المستشفيات. سنعيد الأطباء. سنعيد الدواء. سنفتح العيادات. سنفتح المراكز. سنفعل كل شيء. لكن ليس مثل الماضي. ليس صحة للمليشيا. صحة للشعب. صحة لكل يمني. في كل قرية. في كل مدينة. في كل مكان.

قال الشيخ أبو بلال:

— هذا يحتاج إلى وقت. يحتاج إلى مال. يحتاج إلى خبراء.

قال زيد:

— نعم. لكننا سنبدأ. من اليوم. من هذه اللحظة. لن ننتظر.

المشهد الثامن: الإعمار

المكان: دار الرئاسة – غرفة الاجتماعات

قال مراد:

—الإعمار. كل شيء دمر. البيوت. الطرقات. الجسور.
الكهرباء. الماء. كل شيء.

قال زيد:

—سنعيد بناء كل شيء. ليس مثل الماضي. ليس إعمارًا
للمليشيا. إعمارًا للشعب. إعمارًا لكل يماني. في كل قرية.
في كل مدينة. في كل مكان.

قال مراد:

—هذا يحتاج إلى وقت. يحتاج إلى مال. يحتاج إلى
خبراء.

قال زيد:

—نعم. لكننا سنبدأ. من اليوم. من هذه اللحظة. لن
ننتظر.

المشهد التاسع: القرار

المكان: دار الرئاسة – غرفة الاجتماعات

قال زيد:

—إذن، نبدأ. من اليوم.
نظر إلى الحاضرين. واحدًا واحدًا.
—سلطان. أنت مسؤول الأمن.
—نادية. أنت مسؤولة العدالة.
—وليد. أنت مسؤول الإعلام.

- سارة. أنت مسؤولة التعليم.
- الشيخ صالح. أنت مسؤول القبائل.
- الشيخ أبو بلال. أنت مسؤول الصحة.
- مراد. أنت مسؤول الإعمار.
- طارق. أنت مسؤول العمليات.
- أحمد. أنت مسؤول الشباب.

صمت.

ثم قال:

—لا وزراء. لا حكومة. لا مجلس. فقط لجان. لجان مؤقتة. حتى نكتب الدستور. حتى ننتخب برلماناً. حتى نبنى الجمهورية الثانية. الجمهورية الحقيقية. جمهورية الحرية. جمهورية العدالة. جمهورية اليمن. وقف.

قال:

—هذا هو التحدي. هذا هو البناء. هذا هو اليمن الجديد. لن يكون سهلاً. لن يكون سريعاً. لكننا سنفعله. لأننا لا نملك خياراً آخر. لأننا وعدنا. لأننا أحفاد الجمهورية. لأننا يمنيون.

المشهد العاشر: بعد الاجتماع

المكان: دار الرئاسة – شرفة زيد

بعد الاجتماع، صعد عبدالعالم إلى الشرفة. كان يتوكأ على عصاه. كان جسده متعباً. لكنه كان يقف. كان يقف أمام صنعاء. أمام المدينة. أمام اليمن.

كانت الشمس تميل نحو الغروب. كان الضوء الذهبي
ينعكس على المباني. على الشوارع. على الناس. على
الأعلام.

نادية دخلت. قالت:

—دكتور عبدالعالم. أنت متعب. يجب أن ترتاح.

قال زيد:

—لا. أنا بخير. أنا فقط أريد أن أرى. أريد أن أرى صنعاء.
أريد أن أرى اليمن. أريد أن أرى ما بنيناه. وما سنبنيه.

قالت نادية:

—لقد بنينا الكثير. أسقطنا الكهنوت. أعدنا الجمهورية.

قال زيد:

—نعم. لكن البناء الحقيقي بدأ الآن. البناء الحقيقي
ليس إسقاط الكهنوت. البناء الحقيقي هو بناء الدولة.
بناء العدالة. بناء الحرية. بناء اليمن.

نظر إلى الأفق.

قال:

—أنا لن أرى كل شيء. لن أرى اليمن الجديد كاملاً.
لكنني أعرف أنه سيكون. أعرف أنكم ستكملون. أعرف
أن الأجيال القادمة سترى ما حلمنا به. سترى الجمهورية
الثانية. الجمهورية الحقيقية.

قالت نادية:

—ستكون معنا. سترى.

قال زيد:

—ريما. لكن حتى لو لم أر. أنا أعرف. أنا أعرف أن اليمن
سيكون. أنا أعرف أن الحرية ستنتصر—. أنا أعرف أن
العدالة ستتحقق.

صمت.

ثم قال:

—هذا يكفي. هذا يكفي لي.

الخاتمة

بعد سنوات من الظلام، أشرقت شمس الحرية على اليمن.

في مأرب، حيث بدأت الشرارة الأولى، عادت حقول النفط تضخ الخير لشعبها. في البيضاء، حيث قاوم الأجداد الإمامة، وقف الأحفاد يقاومون السلالة. في تعز، التي صمدت تحت الحصار، عادت الحياة إلى شوارعها. في إب، الجبل الأخضر، عادت المدرجات تزرع الأمل. في ذمار، المخزن البشري، عاد الشباب إلى مدارسهم وجامعاتهم. في الجوف، حجة، والحديدة، اكتمل الطوق، وعاد الميناء يستقبل سفن الحياة.

وفي صنعاء، العاصمة التي عانت طويلاً، عادت الحياة. في ميدان السبعين، حيث وقف عبدالعالم القدسيوخطب في الجماهير، لا يزال صوته يتردد. "عاشت الجمهورية. عاش اليمن. عاشت الحرية." وفي دار الرئاسة، حيث رُفِع العلم الجمهوري، لا يزال العلم يرفرف. وفي زنزانة عبدالعالم التي تحولت إلى متحف، لا تزال الكلمات محفورة على الجدران: "الحرية لا تُشتري بالدموع بل بالعمل الدؤوب".

في حصن خولان، الذي كان مركز المقاومة الرقمية، تحول إلى "متحف الخط الأحمر". فيه تُعرض الوثائق التي فضحت الكهنوت. وفيه يُعرض "الFLASH

ميموري "الصغير الذي حمل مصير أمة. وفيه يُعرض "جهاز البث" الذي أطلق أول صرخة حرية. في الجامع الكبير، حيث صلى اليمنيون لقرون، لا يزال الإمام يخطب: "اليوم، نحن أحرار. اليوم، نحن متساوون. اليوم، نحن يمنيون. لا فرق بين سلالة وغير سلالة. لا فرق بين غني وفقير. لا فرق بين شمالي وجنوبي. كلنا يمنيون. كلنا متساوون. كلنا أحرار." في المدارس، التي أعيد بناؤها، لا يزال الأطفال يرددون: "الجمهورية اليمنية. عاصمتها صنعاء. نظامها جمهوري. شعبها حر."

في المستشفيات، التي أعيد بناؤها، لا يزال الأطباء يعالجون. لا يزال المرضى يشفون. لا تزال الحياة تعود. في الموانئ، التي أعيد بناؤها، لا تزال السفن تصل. لا تزال الحاويات تفرغ. لا يزال الأمل يصل. في حقول النفط، التي عادت تعمل، لا يزال النفط يضخ. لا يزال الخير يعود. لا يزال الشعب يستفيد. وفي قلوب اليمنيين، الذين عانوا طويلاً، لا يزال الأمل. لا يزال الحلم. لا تزال الجمهورية.

عبدالعالم العنسي—، الرجل الذي كتب "الخط الأحمر" من زنزانته، لم يمت. لا يزال حيًا. لا يزال يكتب. لا يزال يحلم. لا يزال يقف. ليس بجسده. بل بفكره. بكلماته. بذكراه. هو الآن في كل مكان. في كل مدرسة. في كل مستشفى. في كل شارع. في كل بيت. هو في كل يمني حر.

نادية، المحامية التي حملت الملف الأحمر، لا تزال تدافع عن الحق. لا تزال تحاكم الظالمين. لا تزال تحمي المظلومين. هي الآن في كل محكمة. في كل قاعة. في كل عدالة.

سلطان القردعي، الرائد الذي قاد المعارك، لا يزال يقود. ليس في الحرب. بل في البناء. لا يزال يحمي اليمن. ليس بالسلاح. بل بالعدالة.

وليد، الشاب الذي حمل الفلاش ميموري، لا يزال يكتب. لا يزال يوثق. لا يزال ينشر. لا يزال يفضح. لا يزال يحلم.

سارة، الفتاة التي حملت وصية عمها، لا تزال تروي. لا تزال تحكي. لا تزال تعلم. لا تزال تبني.

الشيخ صالح الجدعاني، شيخ مأرب، لا يزال مضافته. لا يزال يستقبل. لا يزال يحكم. لا يزال يحمي.

الشيخ أبو بلال، شيخ خولان، لا يزال في حصنه. لا يزال يحرس. لا يزال يحمي.

مراد، الشاب الذي قاتل في كل المعارك، لا يزال يقاتل. ليس في الحرب. بل في البناء. لا يزال يبني. لا يزال يعمر.

أحمد، ابن الشيخ صالح، لا يزال في الميدان. لا يزال يحمي. لا يزال يبني.

الرائد طارق، الضابط الحر، لا يزال في الجيش. لا يزال يحمي. لا يزال يبني.

كلهم. كلهم لا يزالون. لا يزالون في اليمن. لا يزالون في الجمهورية. لا يزالون في التاريخ.

وفي زلزلة انفرادية، تحت الأرض، في مكان ما، كان عبد الملك الحوئي يجلس على سرير حديدي. كان ينتظر تنفيذ الحكم. كان يسمع الهتافات من بعيد. كان يسمع التكبير. كان يسمع الزغاريد. كان يعرف أن الناس يحتفلون. كان يعرف أن الناس يفرحون. كان يعرف أن الناس يقولون: "انتهى الكهنوت". نظر إلى النافذة الصغيرة. كان يرى السماء. كانت زرقاء. كانت صافية. لم يكن يرى شيئاً آخر. فقط السماء. همس لنفسه:
— انتهى.

لم يقل شيئاً آخر. لم يكن يحتاج. كان يعرف. كان يعرف أن كل شيء انتهى.

وفي زلزلة أخرى، كان عبد الحكيم الخيواني يجلس على الأرض. كان يعرف أنه لن يخرج. كان يعرف أنه سيبقى هنا. إلى الأبد. لكنه كان يعرف أيضاً أنه اعترف. أنه ساعد العدالة. أنه كشف الجرائم. ربما هذا سيكون شيئاً. ربما هذا سيكون راحة. ربما.

وفي زنزانة ثالثة؁ كان علي حسين الحوئي يجلس على السرير. كان ينظر إلى يديه. كان يتذكر. كان يتذكر كل شيء. كل أمر. كل توقيع. كل جريمة. كان يعرف أنه سيموت. كان يعرف أنه يستحق. كان يعرف أن العدالة تحققت.

وفي زنزانة رابعة؁ كان عبدالكريم الحوئي يجلس على الأرض. كان يبكي. لم يكن يبكي حزنًا على نفسه. كان يبكي حزنًا على ما فات. على ما فعله. على ما لم يفعله. على كل شيء.

وفي زنزانة خامسة؁ كان جعفر المرهبي يجلس على السرير. كان ينظر إلى السقف. كان يعرف أنه لن يخرج. كان يعرف أنه سيبقى هنا. لكنه كان يعرف أيضًا أن الحياة ليست نهاية. ربما في زنزانته؁ سيجد شيئًا. ربما سلامًا. ربما.

وفي الخارج؁ كانت الشمس تشرق.
كانت تشرق على صنعاء. على اليمن. على التاريخ.
كانت تشرق على الجمهورية الثانية.
كانت تشرق على الحرية.
كانت تشرق على الأمل.

وفي قلب كل يمّني، كان هناك صوت. صوت واحد.
صوت يقول:
"عاشت الجمهورية. عاش اليمن. عاشت الحرية".

تمت الرواية
"أحفاد الجمهورية في مواجهة الكهنوت"
الجزء الأول: الحرب التقنية ضد الأعداء
الجزء الثاني: فجر الحرية

"والخط الأحمر سيظل يكتب... بمداد الشرف
والكرامة"